
الكتاب الأول
قصص
صباح يأتي لك
أسماء عواد
المجلس الأعلى للثقافة

صباح يأتى لك

أسماء عواد

مقرر لجنة الكتاب الأول :

خيرى شلبى

مدير التحرير :

منتصر القفاش

المشرف الفنى :

هشام نوار

الكتاب الأول

- ١١٢ -

صباح يأتى لك

قصص

أسماء عواد



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

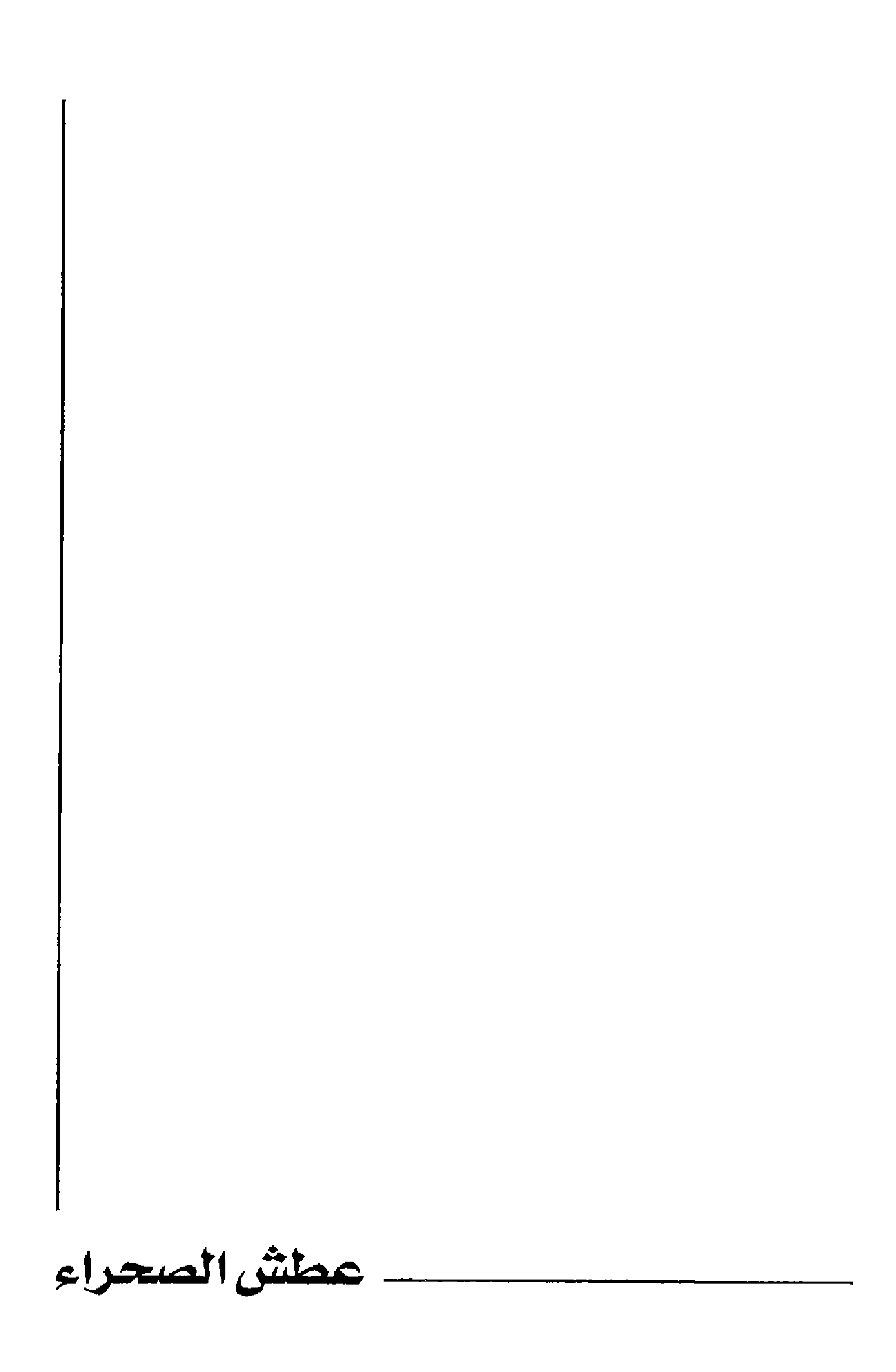
بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عواد ، أسماء .
صباح يأتي لك : شعر / أسماء عواد
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٩
١١٢ ص ، ٢٠ سم
١ - الشعر العربي - تاريخ - العصر الحديث
(أ) العنوان ٨١١,٩

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٠٩٤٩
الترقيم الدولى I.S.BN. 978 - 977 - 479 - 331 - 5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396   Fax : 27358084

المحطة الأولى ...



عطش الصحراء

كونك طبيبا لا يجعلك سببا في كتابة هذه الأوراق. ولكن السبب الحقيقى، هو قدرتك على تفسير الأمور، لذا قررت أن أشرح لك أسباب المرض الذى فشل زملائك فى إيجاد علاج له.

أنت تعلم أني مصابة بالإسهال، والإسهال فى حد ذاته ليس بمرض غريب، لكن الغريب هنا هو إصابتى به فى الصيف فقط وقبل أن تذهب فى تشخيصه مذاهب شتى، دعنى أقص عليك القصة بأكملها.

كنت أعيش فى قرية صحراوية خارج البلاد، وكان عمرى وقتها ست سنوات، ولو استطعت أن أصف لك تلك الأيام بوصف حيادى، سأقول إنها كانت الأيام الوحيدة التى عشت فيها الصفاء الحقيقى فى هذه الحياة. أكسبتنى الصحراء قدرة على رؤية بعض الأشياء مما تخفى على من حولى، فهى باتساعها وامتدادها، تجعل الرؤية واضحة لايحجبها عنك جدران أو بيوت. هكذا استطعت أن أتوصل لأسباب المرض عندى انطلاقا من هذه السمة التى صبغتها على الصحراء؟

ظل الانتهاء إلى الصحراء يسيطر على ، حتى بعدما غادرتها مع أسرتى إلى المدينة. لم أعش فى هذه القرية سوى عام واحد فقط،

وبالرغم من ذلك لا تزال صورتها محفورة فى ذاكرتى حتى الآن، بيوتها الطين، طرقها المتعرجة، رمالها الناعمة التى تتطاير وتتداخل مع الهواء كلما حلت عاصفة أو هبت رياح.. رطوبة النبات عندما تصطدم بحرارة الأرض. بستان النخيل، وبرج المراقبة . تركت كل هذا بعد عام واحد فقط من حياتى بالقرية، وانتقلت مع الأسرة للعيش فى العاصمة.

ولعلك لاتعلم مدى العطش الذى تعيشه المدن الصحراوية فى تلك البلاد، فقد بدأ العطش يتسرب إلى أيضا، أخذ يزداد داخل شوارع المدينة وطرقها، ولم يكن يروينى سوى رؤيتى للصحراء. هكذا أصبحت الرحلات إلى الخلاء هى المفضلة لدى. صعود الجبال كان يشعرنى بالتحدى وبالانطلاق الذى حرمتنى منه نشأتى فى أسرة أصولية. كان الجبل وحده بصوره الملونة. هو الحبيب الذى أتمنى أن أرتمى فى أحضانه، وأعانقه كل يوم. كل صخرة أو هضبة تسلقتها، كانت تترك آثارها على يدى وقدمى.

ذات يوم كنت فى رحلة سفارى، هناك بدت الصحراء وكأنها عروس لم تطأها قدم بشر من قبل. كان هذا بعناية إغراء لنا فقد توغلنا داخلها حتى ظننا أننا سنفقد الطريق، عندها توقفنا، وانشغل كل بما يحلو له وبمجرد أن وضعت قدماى على الأرض بدأت فى تسلق الجبل، والحقيقة أنه لم يكن جبلا واحدا، بل كان سلسلة جبال متلاصقة ومتساوية فى القمم. أو لعله كان جبلا واحدا ممتدا كجدار فى الصحراء، لا تدرك العين نهايته.

ولأنني من محبى الجبال، لم أستطع أن أمنع نفسى من تسلقه وحدى، وأؤكد هنا على كلمة وحدى، إذ تصورت يومها أنها شخص آخر فى شدة حرصى عليها.

كان الفصل ربيعا، والربيع فى الصحراء يأتي مبكرا. يأتى بشوق الرمال إلى قرات الماء التي بمجرد أن تسقط، تمتصها الأرض بعشق يفجر فيها ألوان الخضرة. أقول ألوان الخضرة حيث يمكنك هناك أن ترى خضرة زرقاء، وخضرة بيضاء، وخضرة حمراء، وخضرة سوداء... هكذا تجد ألوان الخضرة ماثلة أمامك فى درجات متفاوتة. لم يدهشني هذا المشهد، فقد تعودت عيناى رؤيته أثناء التجوال مابين الأطراف المتنامية للصحراء، لكن الجديد الذى أدهشنى يومها، هو كمية الماس المنثورة فوق قمة الجبل الملساء. هل تصدق هذا؟ أنا أيضا لم أصدقه، ولو قلت لى يومها أن الماس لا يوجد إلا فى باطن الأرض ماصدقتك. أبداً، إذ رأيت بعينى تلك الكمية الماس وهى تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكأنها عالم من الخيال. كان لها رائحة لم يصادفنى شذاها من قبل، وكانت تبرق تحت أشعة الشمس على امتداد البصر. ومثلما تجعل الرسوم المتحركة بريقا خياليا للأشياء كان لهذا المشهد بريقا كاد أن يصيبني بالجنون، هكذا كدت أن أصاب به وأنا أراها تتبدل فى بريقها بألوان الطيف المذهلة.

أخذت بالمنظر وأنا أقف على قمة الجبل، أتعجب : يد من تلك التى قامت بتمهيد قمته وكأنها مهبط الطائرات ! وكيف نثرت كل هذه

الماسات فوقها ؟ خيل لي ساعتها، أو بدا لى الجبل وكأنه قد أعد نفسه خصيصا لاستقبالي. رأيتني يومها عروسا له، وهو يكشف لى عن أسراره وحدى. وأعود لأؤكد على كلمة وحدى لأنك لن تصدقنى إلا بعدما استكمل القصة. كان الطعام قد أعد وكنت الوحيدة الغائبة عنه ولما افتقدنى الجميع أرسلوا بمن يحثنى على الهبوط، ولم يتبرع للقيام بهذه المهمة سوى شخص كان من المفترض أن يكون خاطبا لى. وكنت أجرى على السطح، فاتحة ذراعى، أرقص رقصة لحبيب لم يكتب له أن يتجسد أمامى، أتأمله وأنا أعجز عن ضمه إلى صدرى، وفجأة قفز إلى ذهنى ما قرأت عن مسخ الكائنات : ماذا لو كان الجبل إنسانا يملك مايمتلكه من قوة وشموخ، ولسبب لا أعرفه مسخ إلى هذا العملاق؟ أوشكت خيالاتى أن تأخذ طريقها إلى أرض الواقع، وأنا أسمع صوتا ينادينى ويطلب التحدث الي، لكنى أفقت على حقيقة أن الصوت كان لذلك الشخص الذى يدعونى للهبوط.

كان قد قطع على صلاتى، فتحركت صوب الحافة، حدثته لدقيقة وعدت بعدها لأجد كل شئ قد تلاشى واختفى. كان سطح الجبل الذى يشع بالحياة، قد انطفأ فجأة، وكأنك قد ألقيت عليه بأطنان من جليد،

لا أستطيع أن أصف لك كمية اليأس التى أصابتنى يومها، حتى أنى أوشكت على إلقاء نفسى من فوق الجبل، فقد أطلت البقاء فوقه حتى يعود البريق، ولكن شيئا لم يعد، صعدت إلى نفس المكان مرات

أخرى فى نفس اليوم، وعـــاودت الكرة فى أيام متباعدة، ولكن لاجدوى. كنت فى حيرة هل غضب الجبل لانشغالى عنه، أم أنها البكارة التى يفضها الإنسان لحظة الاكتشاف فقط. فلا يمكن أن يعيشها مرتين؟

كـانت لحظة عشق مـتـبادلة، باح لى فـيـها الجبل بحبه، وبحت له بالكثير. وكانت تلك الزهرات البنفسجية اللون، هى السبب فى ذلك اللمعان الذى بدا تحت أشعة الشمس، فى ساعة معينة، وفصل معين مثل بريق الماس. وحتى الآن لا أعلم كيف شـقت جذور تلك النباتات الصغيرة طريقها فى الصخور الملساء؟ وكيف خرجت منه هذه الزهرات المتناهية فى الصغر؟

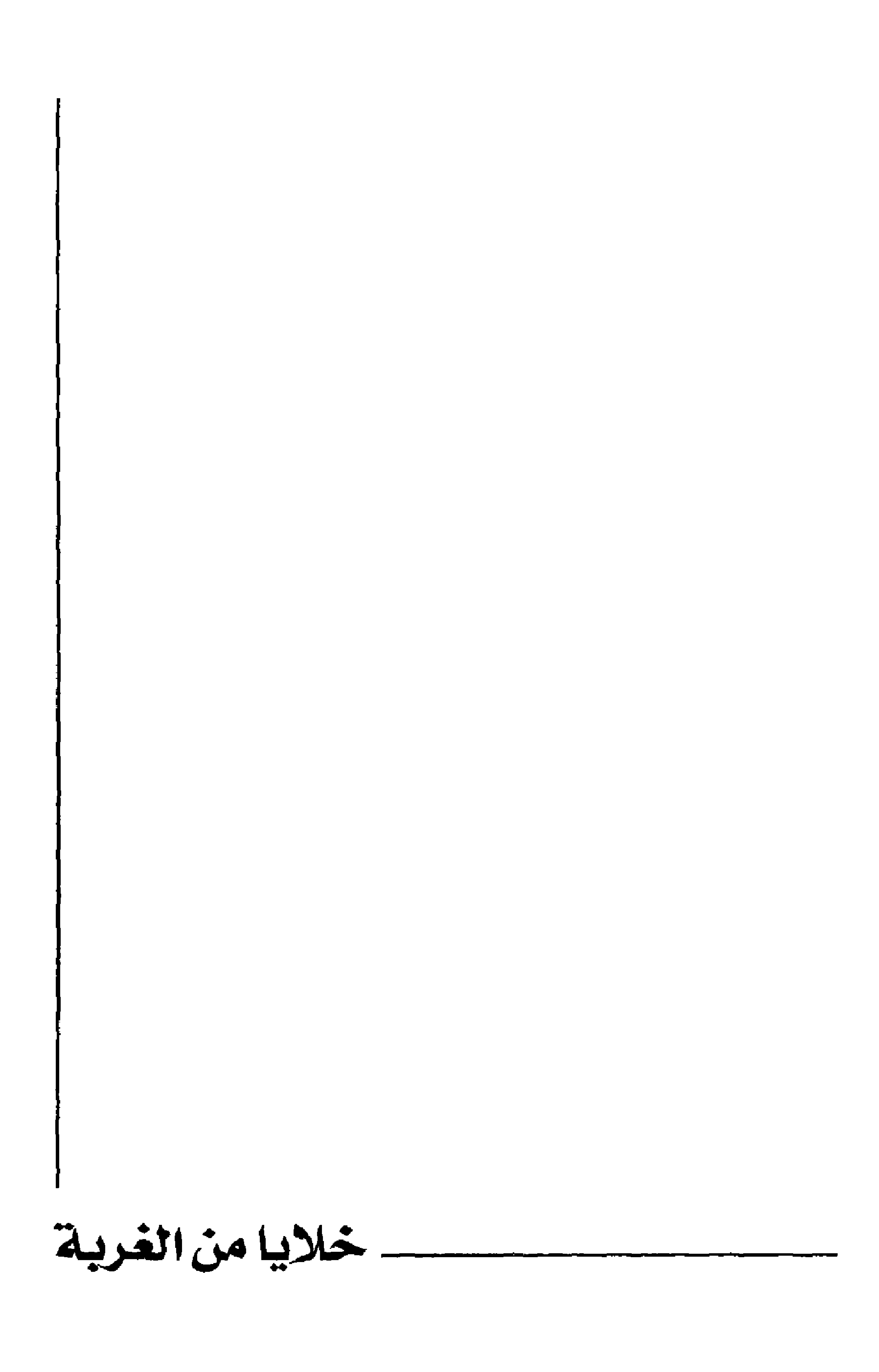
الآن أبوح لك بالسبب الذى عجز الأطباء عن الوصول إليه، وأضع يدك على مناطق المرض، لنرى اى عطـش يمكن أن أعيشه وأنا بعيدة عن موطنى. فقد مر على مغادرتى للصحراء سبعة أعوام هى زمن إصابتىِ بالمرض، منذ ذلك الحين توقفـت دهشه الحيـاة ولم تعد تأتى لى بالجديد.

أما عن علاقة المرض بالصحراء، فهذا مالم أدركه إلا مؤخرا. ولأنى - كما قلت لك - قد توحدت بالجبل وبالرمال، أذكر أن الصحراء تحب المطر فى الشتاء فقط، حيث يمكنها أن تخزنه بداخلها كى تفجر به أسرارها فى الربيع. أما فى الصيف فلا ماء العالم يمكنه أن يروى ظمأها. وتحت قيظ الشمـس يصبح الماء بلا فـائدة، بل يصبح سببا

فى فساد تفردها وخصوصيتها. هكذا يرفض جسدى الصحراوى الماء فى الصيف، ولايجد طريقه للتعبير عن ذلك إلا بإخراجه فى أسرع وقت، حتى لو كان بالإسهال الحاد.

بقى أن أذكر لك أنى فى نوبات العطش، لا أجرؤ على شرب أكثر من ملء الفم بالماء. منذ سبعة أعوام وأنا على هذا الحال. وعبثا حاولت مع الأطباء والدواء، حتى يئست وقررت التنازل عن شرب الماء فى الصيف، لأبقى رهينة العطش، أنتظر الشتاء... وأنتظر مطرا يأتى من بعيد.

٢٠٠٣م



خلايا من الغربة

قاومت نفسى كثيرا كى لا أكتب إليك، فالكتابة عندما تكون صادقة، لابد وأن تلمس معها جراح القلوب. أنا أكتب إليك اليوم بقلم يلمس كل جروحى فالصدق هنا ليس اختياريا، وإنما واقع يفرض وجوده علىّ، فلا مجال لإنكاره أو التصدى له.

أنت تعلم بأنى أعيش الآن مرحلة احتضار بطئ، ليس بسبب ذلك الوحش الذى يسكن منطقة الحوض عندى، فهو بالرغم من كونه هلامى، يتشعب فى تجويف البطن دون أن يستقر فى مكان ثابت، إلا أنه قابل للعلاج. هذا ما تعتقده أنت وبقية زملائك ولكن الحقيقة ليست كما تبدو لك. ستفاجأ عندما تعلم بأن العلاج الذى وصفته لى هو سبب الاحتضار الذى يعذبنى الآن! ولأنكم قد قررتم أنه الوحيد الذى يحافظ على جسدى من الموت، كان على أن أختار مابين موت الجسد أو موت الروح. ولأنى أجهل الكثير عن العالم الآخر، فقد أثرت أن أحتفظ بجسدى حتى لو كان على حساب روحى وخلاصها.

قبل أن تتعاطف معى، أجد من الأمانة هنا أن أعترف لك بأنى أستحق مايحدث لى، فقد كنت أتوقعه منذ أن قمت بارتكاب ذلك الذنب منذ عشرة أعوام. أعترف بما فعلت لعل الاعتراف يمنحنى لحظة هدوء فأنا

- بالرغم من كل شيء - أستحق السلام مثل كل إنسان يودع هذا العالم إلى عالم يجهله.

في الماضي لم تكن الحياة كما هيِ الآن.. كانت رحبة وواسعة تماماً مثل الصحراء التيِ خرجت لزيارتها مع إحدى صديقاتيِ، وقبل أن أقص عليك ما حدث فيِ ذلك اليوم دعني أصف لك أولاً المنطقة التيِ قمنا بزيارتها وهيِ منطقة آثار الدرعية القديمة.

يعود تاريخ بناء الدرعية إلى مايزيد عن أربع مائة عام، ولاتزال قائمة حتى الآن، بالرغم من بنائها الذى كان من الطين اللبن. شامخة فوق تلة عالية تشرف على واد سحيق، تظلله بساتين النخيل يمينا ويسارا. ومن حول كل هذا تبدو الصحراء طاغية... جبارة فى اتساعها على امتداد البصر.

تلك هى المدينة التى كانت من أعظم، وأكبر مدن الجزيرة العربية حتى عام ١٨١٨ م. والتى كانت الانطلاقة الأولى فى العالم العربى. للخلاص من الهيمنة العثمانية، فما كان نصيبها إلا الدمار والتحطيم.

وقد تعرضت مد ن كثيرة عبر التاريخ لنفس المصير، لكن مدمريها لم يقوموا بما قام به ابراهيم باشا من طغيان، بعد أن هدم مبانيها، وقتل أهلها، وأخذ يتتبع من سلم من القتل منهم، ويلاحقهم بحملات متتابعة للتأكد من اختفاء نبض الحياة فيها، وفى قرى الوادى بأكمله.

وقفت على أبواب المدينة استرجع قول ابن بشر عنها وأتعجب، كيف صمدت أمام حصار ابراهيم باشا لعام كامل بينما تساقطت مدن الشام

وفلسطين فى مدة بسيطة : «شهد أهل الآفاق من العراق والبصرة، وغيرهم بالفضل لأهل الدرعية وقوتهم وثباتهم، وصدق جهادهم، وصبرهم على الحروب، حتى ثبتوا له هذه المدة الطويلة، وقتلوا من عسكره أمما عظيمة».

كان الوقت عصرا، وكنا نخشى أن يهاجمنا الليل قبل أن ننهى جولتنا فأسرعنا بالصعود. وبالرغم من برودة الجو، إلا أن إحساسنا بالبرد قد تلاشى بعد أن تسربت إلينا ألوان الصحراء الدافئة، جعلنا هذا نستقبل المطر بنفس الشوق الذى استقبلته به الرمال، هذا المطر سرعان ماتوقف لنبدأ أنا وصديقتى تجربة لم يتح لنا أن نعشها من قبل. الآن وأنا فى احتضارى البطئ، لا أجد شيئا يمكنه أن يوقف هذا الاحتضار سوى أن يعود الزمن إلى الوراء، لأعيش فى ذلك المكان، وأشم تلك الرائحة من جد يد.. رائحة الماضى ممزوجة بالرمال وبالمطر.

هكذا وجدت نفسى منذ غادرت الصحراء.. بمجرد أن يأتى الشتاء يعاودنى الحنين إليها، فأرحل بحثا عنها مابين القرى والمدن، وكانت النتيجة أن توقفت عن البحث، فقد اكتشفت أن لكل مدينة رائحة خاصة بها، تفوح منها بعد أن تغتسل بالمطر، أدركت أن الرائحة تكسب خصوصيتها من تميز صاحبها، فلا يمكن أن نعيشها إلا مع كائن واحد فقط، نتحد ونتمازج معه، لذا تتجلى لنا رائحة أجساد من نحب، تسكرنا وتدور برؤوسنا، بينما نقشعر منها اشمئزازا عندما تأتى من آخرين.

كم من أرض وطأت قدماى، أبحث عن أخرى مشابهة فلم أجد، كنت أجد من يقاربها فى الشكل، أما الرائحة فقد كانت مثل رائحة الجسد لايمكن أن تجدها إلا فيمن تتحد معه، حتى فى العصر الذى كثرت فيه آلات التسجيل، نعجز عن اختراع آلة يمكنها أن تخزن بداخلها رائحة من نحب كى نسترجعها وقتما نشاء.

تختلف الروائح وتتشابه الصور، وبالرغم من ذلك تظل الصحراء هى الصحراء.. اتساع رهيب، لايمكن أن تحتويه إلا عندما تتخلص من أنانيتك. عندها تتوحد بك وتمنحك أسرارها. هذا ما راودنى فى ذلك اليوم بعد أن توقف المطر، وأشرقت الشمس لتلقى بضوئها الواهى على منازل شهدت بداخلها قصص حب، ومكائد، وحروب على مدينة كانت منذ أربعة قرون مركزا اقتصاديا، وسوقا تجاريا لأهل اليمن، وتهامة، والحجاز والبحرين وبادية الشام ومصر.

منحتنا الصحراء أسرارها فى ذلك اليوم، وبعد أن توقف المطر، وقفنا صامتين نراقب السماء وقد اكتست بألوان قوس قزح. لم يظهر قوس قزح بشكله المألوف، نصف دائرة تربط الأرض بالسماء، بل انقسمت السماء من شرقها لغربها، ومن شمالها لجنوبها، إلى مساحات ملونة، بينما انعكست هذه الألوان على المساحات المقابلة لها فى الأرض بقصورها ونخيلها، ورمالها، تحولت جميعها إلى مرآة للسماء، وقد اكتسى كل جزء منها بلون من ألوان الطيف، وتحدد كل لون.. بدايته ونهايته بخيط أبيض يلقى شعاعا رفيعا على الأشياء، يحدها به.. ثم يسقط بعدها على الأرض.

وقفنا بأسوار المدينة خاشعين، نتأمل البيوت القديمة والنباتات وهى تتدرج مابين البرتقالى، والأصفر، والنيلى، والأخضر، حتى تصل عبر الأفق البعيد إلى أزرق تلتقى فيه الأرض بالسماء، وكان أحدهما قد أصبح امتدادا للآخر. هل تصدق هذا!؟ نحن أيضا لم نصدقه، فقد مضى علينا وقت طويل حتى أدركت حواسنا المحدودة، أن قوس قزح الذى تشتاقه نفوس الناس جميعا، نعيش نحن بداخله كان المشهد رائعا، وكنت أتأمل المكان فى محاولة للامساك بالمشهد فلا أدعه يتسرب من بين يدى، وأصدقك القول أنى لو كنت أحمل آلة تصوير لما شغلت نفسى بها، فما كنت لأضحى بمعايشتى للحظة من أجل تحنيطها.

وقفنا صامتين وقد أخذنا بالمشهد إلى الحد الذى بدت كل واحدة منا وكأنها قد غابت عن الوعى. ونحن فى هذا الخشوع، وقع نظرى على نبته صحراوية تقع مابين منطقتين للضوء، مما جعل أوراقها تبدو وكأنها قد حددت بأسلاك مشعة أو لامعة.

انتهت اللحظة، ورحل قوس قزح، كانت الشمس قد احتجبت وراء إحدى الغيمات، وظل المكان محتفظا بغموضه السحرى تحت أشعة الضوء الخافت، صورة طاغية ورائحة أشد منها طغيانا.

أعود الآن للذنب الذى حدثتك عنه، فالنبتة التى وقع عليها بصرى ظلت تشغل تفكيرى وأنا أطوف بالمكان، وعند العودة اتجهت إليها بعد أن قررت أن أصحبها معى.

كان لونها أخضرا يميل إلى الإصفرار. وهى فى جذعها وفروعها وأوراقـها، لم تكن سوى كتلة من الأشـواك. ساق تنتـهى بسن شـوكى، أفرع عبارة عن أسـهم شوكيه، وأوراق أبرية متناهية فى الصـغر. كانت المنطقة مليئة بأنواع كثيرة من النباتات، والتى تبدو للأعين العادية أجمل بكثير من تلك التى اخترتها لاقتلعها من أرضـها. لكنى لم أهتم إلا بهذه النبتة، فقد رأيت فيها صـورة مشابهة لصورتى لم أدرك يومها وجه الشبه بينى وبينها، ولكنى شعرت بأنى وهى سنعيش معا نفس المصير. مددت يدى لاقتطعها من الأرض فلم تصب بجروح، عندها أحسست برقتـها التى أخفتها وراء أشواكها، مثل بعض الكائنات التى ترغب فى الحفاظ على جمالها عن طريق ستره وراء شكل من أشكال القسوة.

قلت لك أنـى شعرت تجاه هذه النبتـة بتوحـد المصـير، لكنى حتى اللحظة التى رأيت فيها دموعها لم أكن أتصور مدى قسوة هذا المصير. كنت أمسك بها فى يدى ، بينما دموعها تتساقط بين أصابعى فى نزف متواصل. وأنا أهبط التل فى اتجـاه السيارة. اختفت بعدها الشمس، وتلبدت السماء بالغيوم. وفجأة رعدت وأبرقت، ثم أمطرت بغزارة حتى تعذرت الرؤية أمامنا.

كان لسقوط حبات المطر على الرمال وقــع مـخيف فى نفسى، شعرت بالندم على حرمانى لهذه النبتة من أرضـها. وبدأت أوجه اللوم لنفسى: لعلها كانت عطشى، لو أنى تركتـها على أرضـها لكانت تسقى الآن بماء المطر.

كنت قد رأيت في حياتي نباتات متعددة وهي تبكي ألوانا مختلفة من الدموع، منها ماهو أبيض شفاف كالماء مثل دموع الاقحوان الحزين، أو جليدي كالحليب مثل دموع العشر(*) السامة، أو أصفر كدموع الكافور الشامخ عبر السنين. لكنني لم أر أبدا نبتة تذرف دموعا سوداء مثلها، وأقسم أنها كانت سوداء سواد الليل المظلم بلا قمر يضيئ.

هكذا أظلمت الدنيا في عيني وأنا أمسك بها، أرتجف وقد سرت في جسدي قشعريرة لا أعلم إن كان مصدرها البرد أم الخوف. خفت من عدالة السماء. أن تلاحقني فأكون يوما في مثل حالتها وهي تذرف دموع اليأس بين يدي، حيث لايمكن العود من جديد.

تحركت السيارة لتشق طريقها ليلا عبر الصحراء، بينما أخذت صديقتي تراقبني في صمت، تتعجب وهي ترى وجهي وهو يتبدل أمامها كموج البحر، هكذا تتبدل الأحوال في يوم واحد من نهار مشرق بألوان قوس قزح إلى ليل مثقل بالسواد والهموم.

تحجرت دموع النبتة السوداء على أفرعها، وظل الخوف يلاحقني وأنا أحملها معي من مدينة إلى أخرى، أحرص على أن لايفقدني الترحال جزءا من تكوينها، حتى استقر بنا المطاف أخيرا فوق أحد الرفوف، ترقد هي الآن في إناء من الزجاج الملون، وأرقد أنا على فراش يشبه الرف الذي وضعتها عليه... منزوعة من أرضي، جذوري عارية، حيث لا

(*) العشر: نوع من أنواع النباتات الصحراوية التي تفرز عصارة بيضاء تصيب العين بالعمى.

تاريخ يغطى أجزائها، ولا ذاكرة تقيها البرد فى أيام الشتاء الطويل، حاولت أن أغرسها فى التراب فعجزت... كيف تمتد الجذور فى أرض... صلبة، بعد أن كانت لجزيئات أرضها مسام واسعة تسمح للهواء بالنفاذ إليها، وتتيح لها أن تتشعب فى بساطة ويسر؟

كنت فى كل زيارة لهذه الأرض أنتفض بعد أن يصطدم وجهى بالهواء خارج المطار، أتراجع احتجاجا على رطوبته المعكرة لجفاف بشرتى. وكنت فى كل مرة أتماسك بعد أن أطمئن نفسى بأنها أيام وأعود. لم أتصور أن يأتىِ اليوم الذى أصبح فيه مثل تلك النبتة، بعيدة عن أرضى، تدفعنى الغربه إلى التقوقع حول نفسى، أقتات على ما أخزنه من ذكريات فى داخلها، فلا أسمح لها بالتبخر بعد أن حولت مسامها إلى أشواك تمنع التسرب منها أو إليها.

أما كيف ومتى أدركت هذا فى شكل استسلام يائس، فقد كان فى اللحظة التى ختم فيها موظف المطار جواز سفرى بختم الخروج بلا عودة. كنت أمسك بالنبتة فى يدى اليسرى، أنظر إليهما وقد أدركت بأن اللعنة قد لحقت بى وأنه قد حان موعد تسديد الحساب. تضخم ذلك فى نفسى عندما سمعت النداء الأخير على الطائرة وصوت الموظف يتعجل حركتى فحثثت الخطى وأنا أشرع فىِ البكاء.

هاهى ذى اللعنة التى حلت على طول هذه السنين توشك أن تنتهى، فقد قال الأطباء أن العلاج الوحيد الذى يوقف توغل هذه الأكياس هو

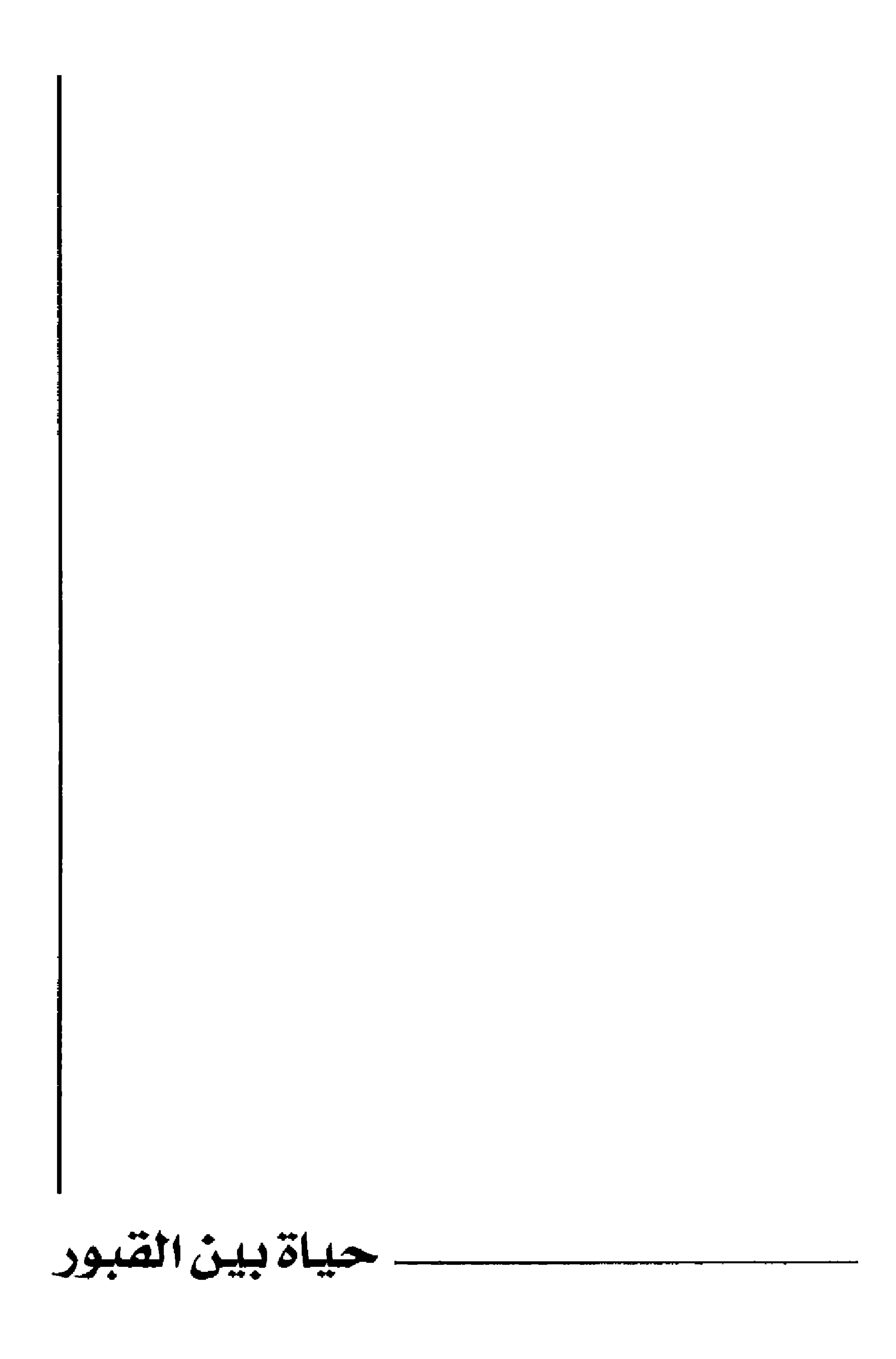
حبوب منع الحمل. هل تصدق هذا؟! إن الرحم الذى يفترض أن يكون أرضا خصبة للنماء قد ضاق بالغربة، أراد أن يتخلص منها فلم يجد لذلك سبيلا سوى أن يحصرها فى خلايا منه. هذه الخلايا أيضا زادت غربتها حتى انفصلت عنه وعاشت خارجه، ولما ضاقت بها الغربة أخذت تتضخم حتى أحاطت بالرحم والأنابيب، والكلية، والأمعاء، والمثانة، ولم يتبق سوى الرئتان وهى المرحلة التى يخشى منها زملاؤك. ولأن هذه الخلايا فى الأصل كانت خلايا رحمية قررتم محاربتها بحبوب منع الحمل!! تخيل.. الحمل مرة أخرى، النماء والانتماء... حيث تنتمى لآخر وينتمى لك... يكون كلا منكما وطنا للآخر. هذا ماتحول دونه هذه الحبوب، إذ تجعل الصحراء التى توصف بالجدب، أكدر خصوبة وعطاء حيث يمكنها أن تنبت الرمث الذى يأكله البعير، الخزامى الذى يفوح عطره فى الأجواء، والكمأة التى تباع بأعلى الأثمان. هكذا فى لحظة قوة أتمرد على هذه الحبوب، وأتوقف عن تعاطيها منذ شهور.

لقد حكمت العدالة أن يكون خلاصي عن طريق روحي وجسدى معًا صدقنى أيها الطبيب محظوظون أولئك الذين ماتت أجسادهم قبل أن تموت أرواحهم وهم أحياء، فهم يواصلون الحياة بعد رحيلهم فى القبور، هناك تحلق أرواحهم فوقهم فى سعادة أبدية... أما أولئك الذين فقدوا الإيمان بالإنتماء وثبات الوجود، فهم الموتى الحقيقيين فى هذه الحياة.

هكذا يمضى العمر بعد أن تستهلكنا التجارب وتأتى على مخزوننا من الفرح والحزن ثم تتركنا للسكون، هل هذا هو السلام المنشود.. أن نتخلص من ثقل التجارب بيقين يخلو من الندم على مافات، أو من الحسرة على مالم نعشه فى حياتنا؟

أما عن النبتة ذات الأشواك فلن تصدق ماحدث لها. لقد اقتربت منها عندما بدأت الكتابة إليك، فوجدتها قد ألقت عنها الدموع السوداء بعد أن تحجرت على أغصانها طوال تلك السنين. لا أعلم إن كانت هذه الدموع قد اختفت منذ أن قررت الكتابة إليك أم منذ توقفت عن تعاطى الدواء؟ احتمالان - غير مؤكدان - كلاهما وارد وغير وارد معا. لكن الأكثر وضوحا ووروداً هنا أن كلانا قد بدأت آلامه فى الزوال بعد أن عرف طريقه فى الخلاص.

مايو ٢٠٠٣



لم يصدق سائق السيارة أذنيه وأنا أطلب منه أن يتوقف أمام الطريق الفرعي المؤدى إلى القرية، مما اضطرنى لأن ألح عليه بالوقوف. استدعى هذا منى جرأة فائقة، فالطريق الذى كان مختصرا ونائيا عن المنازل، يخشاه الجميع فى النهار فما بالك بمثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

توقف السائق ونزلت من السيارة... عبرت الطريق السريع، ثم هبطت إلى الطريق الفرعى مخلفة ورائى مضخة المياه، وشجرة التوت التى كانت علامة المكان. كنت قد تأخرت فى العودة عندما قررت أن أختصر الجهد والمسافة بالسير فى هذا الطريق. وكانت حقول القمح والأراضى المكشوفة يمينا ويسارا تضيف إليه وحشة أكبر من وحشة المقابر التى سأمر عليها، وبالرغم من ذلك واصلت السير مهيئة نفسى للمرور بها.

كان القمر يوشك أن يكتمل مما أتاح لى رؤية مواضع قدمى، وفى خطى سريعة قطعت ثلثى المسافة حتى وصلت إلى الشق الأخير من الطريق. هناك تمتد مدافن العائلات يمينا ويسارا لتحجب الحقول، فأشعر وأنا أسير فيها بأنى قد دخلت نفقا لا نهاية له.

بدأت السير فى خطى ثابتة بعد أن أقنعت نفسى بأن المكان لا يختلف كثيرا عما نراه فى الصباح، مجرد حجارة وقباب مطلية بالجير، لكنى ما أن قطعت نصف المسافة، وأمام المكان الذى يحوى رفات أقاربى بالتحديد، حتى سمعت صوتا يشبه فحيح الأفعى. بدأ الخوف يدب فى نفسى مضفورا بالخرافات المتداولة عن الموتى. عندها توقفت استرجع تفاصيل الصوت، وأعيد ترتيب الأمور، فتذكرت أن الثعابين لاتسكن القبور، ماذا لو لم يكن فحيح أفعى، وكان حشرجة صوت قادم من حنجرة إنسان لايقوى على الصراخ؟ نظرت إلى البوابة وتعجبت، فالقفل الحديدى الذى يحكم إغلاقها يؤكد على عدم دخول شخص إلى المكان.

فجأة قفزت إلى ذهنى صورة ذلك الممثل الذى دفن وهو حى. وكان قد أصابته إغماءة بعد صراع طويل مع المرض. تذكرت كيف تم دفنه بعد تشخيص خاطئ بالموت، وبعد أن دفن أفاق ليجد نفسه مغطى من رأسه حتى قدميه بالكفن، وهو ممدد فى قبر مظلم.. بارد كالجليد. عندها أخذ يزعق ويدق على الباب طلبا للنجدة، ولكن حارس المقبرة الذى لم يسْبق له أن سمع صوت إنسان بعد دفنه، ظن أنه شبح الميت يحاول الخروج. ولما زاد النداء اضطر حينها لأن يتجه إلى أسرته، وعندما فتح عليه الباب، كان اليأس قد تمكن منه بعد يوم كامل من الخوف والفزع، وجدوه بجوار باب القبر.. جالسا القرفصاء، وقد ذهب فى موت مخيف. تخيلت شكله وقد مات من الخوف، ثم وضعت نفسى مكانه عندها

تسمرت قدماى على الأرض، لعل طريقى قد جاء من هنا كى أتيح الفرصة لميت بالعودة من جديد.

ازدادت قناعتى بوجود كائن حى، وأنا أسمع الصوت وقد بدا أكثر وضوحا . كان له هذه المرة إيحاء إنسانى، وكأنه وقع أقدام على أوراق جافة. أو أيدى تبحث عن طعام ما بين لفائف وأكياس مطوية، عندها عادت إلى ذكرى صديقتى التى مات ولديها الصغيرين فى يوم واحد.. تذكرت كيف كانت تخشى النوم، وكيف كانت تتهرب منه مثل طفل صغير، حيث يضعها أمام خيالات وأحلام تقلق فيها إحساس الأمومة. وهى المنهارة على عتبات الموت. كانت ترى وهى نائمة طفلها الصغير وهو جالس القرفصاء بجوار أخيه، يطلب منها أن تأتى لإخراجه لأنه لايزال حيا . وفى مرات أخرى كانت تراه وهو يمد يده إليها طالبا الطعام:

- أنا جائع يا أمى أحضرى لى كوبا من حليب.

عندها كانت تستيقظ باكية، تطلب العون ممن حولها ليحملوها إلى قبر ولدها، وعندما تصل إليه تبدأ فى الدق المتواصل على بابه، تحدثه فى يقين :

- أنا أمك ياحبيبى لا تخف سأفتح لك الباب.

وعندما تمتد يدها لتفتحه، تمتد الأيدى لتستوقفها وتحملها بعيدا كانت تثبت نظرها على القبر وهى محمولة على الأكتاف، تهتف بإعياء:

- أولادى ... فقط أريد أن أطمئن.. اتركونى أتأكد.

ظل صوتها يتردد فى أذنى مع صوت ذلك الشاعر:

– القبر بارد يا أمى أرسلى لى قميصا من صوف.

عندما وصلت بذاكرتى إلى هذا الحد، وجدتنى أسير إلى المدفن تحت هاجس أن هناك حبيسا يأمل فى الخروج، لكنى عدت وتوقفت فالموت فى قريتنا له ضجيج معلن، وطقوس تجعله على أولويات الحياة، لذا من المستحيل أن يموت شخص دون أن أعلم به. ولما كنت على يقين بأنه لم يمت أحدا منذ ثلاثة أسابيع، تراجعت وقررت أن أستكمل المسير، لكنى – بعد خطوتين فقط – سمعت الصوت وقد تحول هذه المرة إلى نبش أظافر تستجدى الحياة. توقفت وقد ازدادت حيرتى إن لم يكن جسدا فماذا يمكن أن يكون؟ ماذا لو كانت روحاً حبيسة.. كيف أهيئ لها طريق الخلاص؟

عبثا حاولت أن أتذكر ماقد سمعت أو قرأت عن الأرواح، وبدأت الأسئلة تطوف مع الذكريات، ماذا لو كانت روح عمى التى تعلقت بحفيدته قبل الرحيل؟ كان يرجو رؤيتها وهو على فراش الموت، لازلت أذكر كيف كان ينظر إلى الباب وهو ينطق باسمها واسم أبيها الذى رحل.

مات الابن وكان موته الضربة القاضية للأب والأم حتى لحقا به معا. كانت الأم هى آخر من رحل، وكانت تجلس على عتبة الدار،

تتأمل الوجوه العابرة وعندما ترى وجها مشابها لوجه ولدها، تضع يدها على صدرها وتهتف:

- كبدى يا ولدى.

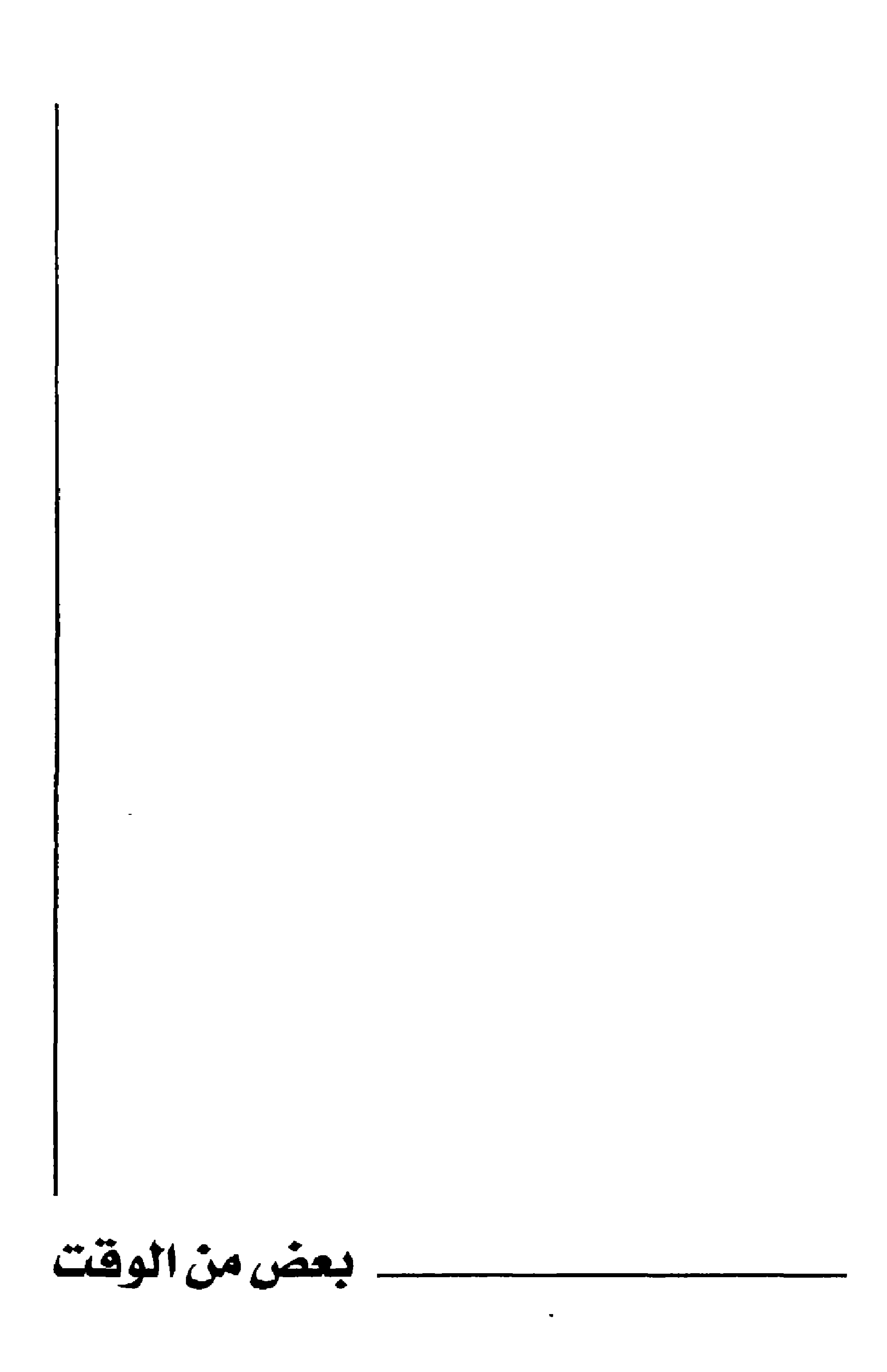
لعلها أرواحهم جميعا تشكو قسوة زوجة الابن التى ضنت عليهم برؤية الصغيرة حتى بعد الموت. ماذا لو كانت هى أرواحهم تحوم حول المكان وهى تسعى للخلاص؟ وقبل أن أقرر ماذا أفعل ، سمعت الصوت وقد ازداد تجسدا . هذه المرة تأكدت من أنه واقع يستدعى الشجاعة كى أكشفه. عندها غادرت ترددى وتحركت صوب الباب الذى يفصل المدافن عن الطريق، وهناك فوجئت بدائرتين فسفوريتين تشعان أمامى فى الظلام. تجمت فى مكانى وقد شل تفكيرى، استغرقت ثوان حتى اكتشفت أنها عينان تحدقان بى، ولابد أنه أيضا قد تعرض لما تعرضت له، فقد كان يحدق بى وقد تجمدت عيناه. لم يطل السكون بيننا، إذ تحرك فجأة تجاهى، وفى اللحظة التى ازدادت فيها دقات قلبى عنفًا، كان قد قفز من بين فجوات البوابة ملامسا كتفى، ثم أخذ يجرى مسرعا نحو الحقول، وهناك اختفى فى لمح البصر.

كانت سرعته باهرة، حتى أنى لم أر من تفاصيل جسده سوى ذيله الكبير وهو يمر أمام عينى قبل أن يبتلعه الظلام.

ابتسمت وأنا أحاول أن أهدئ من روعى، فالذى كان جائعا... يبحث عن الحياة فى بيوت الموتى، لم يكن سوى نابش القبور.

٢٠٠٣م

المحطة الثانية ...



بعض من الوقت

كنت أجلس فى مكتب أحد الأصدقاء عندما دق جرس الهاتف ورفع السماعة ليتلقى خبرا مؤلما، بدا من الوهلة الأولى أن الشخص عزيز عليه فقد تقلصت عضلات وجهه فجأة، وثبت بصره فى مكان بعيد. قال :

– غير معقول كنت للتو أتحدث عنه مع إحدى الصديقات.

قبل هذه العبارة لم أكن مهتمة إلا بمتابعة تفاصيل وجهه، وبالعبارة المناسبة التى سأتفوه بها للعزاء، لكن كل هذا تلاشى أمام كونه صديقا مشتركا لنا. ولأن الحديث قد طال وتشعب حتى طال الكثيرين، دق قلبى.. بعد قليل سأغادر نفسى بعدما أثقلها باللوم المعتاد: ماذا قدمت له قبل أن يموت؟ هذا مايحدث فى كل مرة أتلقى فيها خبر موت قريب.

لا أعرف قيمة من أحب إلا بعدما يرحل أو يسقط فجأة تحت وطأة مرض يهدد بالرحيل. الموت هو الحالة التى تخرجنى من ذاتيتى لأعيش الآخر، أخرج من ذاتى لأعيش حياته بتفاصيلها الدقيقة، أسترجع تاريخ علاقتنا، الأحداث التى عشناها أو لم نعشها معا، الأشياء التى منحتها ولم أمنحها له، الأوقات التى تقاسمنا فيها الحب والكره، ثم أسأل نفسى

كيف تعاملت مع اختلافه أو حتى تشابهه قبل أن يتلاشى عن العالم الذى لازلت أحتل جزءا منه؟

نظرت إلى وجه الصديق، قرأت على صفحته ملامح من الحزن، ترى من يكون ذلك الرجل؟ وأين مكانه على خارطة الأصدقاء؟ الأصدقاء الذين يعمقون عندى الإيمان فى الوقت الذى أفقد فيه الثوابت والحتميات. يشكلون بوجودهم ذاكرة من الصمود، تزداد بها قوتى أو تنقص، فبقدر ما أملك من أصدقاء، أملك قوة وثبات. لعل إيمانى بمن حولى وإيمانهم بى هو جزء من إيمانى بالله، وبروحه التى وضعها فى البشر، فى احتياج كل منا للآخر.. وفى استكمال النقص كى تكتمل. هكذا يهتز تماسكيِ بغياب الأصدقاء، فتهتز ثقتى وأشعر بأنى أقف على أرض غير ثابتة.

أخرجنى من أفكارى صوت الصديق وهو يسأل: متى حدث هذا؟ بسرعة عادت إلى ذكرى إبراهيم، تذكرت كيف جاءنى خبر وفاته بنفس الطريقة، فى الهاتف – أيضا – وبدون مقدمات، دون مستشفى أزوره بها.. أو مرض يقرب إلى تصور الرحيل، قررت أن أذهب لزيارته عندها قال لى ناقل الخبر:

– لن تستطيعى رؤيته، لقد أعطاك عمره.

ظلت «أعطاك عمره» تتردد فى أذنى وأنا أتذبذب مابين الحزن وتأنيب الضمير، أعطاك عمره فى بلادى تعنى أنه قد مات، وبالنسبة لى تعنى

أنه مات وترك لي عمراً أتحمل فيه ثقل رحيله وحدي. كان يمكن لرحيله أن يكتسى بالحزن فقط لولا أنى قد سددت أذنى كى لا أسمع صوت مشاعره. عادت إلى الذكرى، وعاد معها لومى القديم لنفسى كيف تركته يرحل قبل أن أقدم له شيئا يسعده؟ كان يتمنى أن أحتفل معه ولو لمرة واحدة بذكرى مولده. وكنت أحتج بأن أعياد الميلاد مناسبة أسرية لايصبح لى التواجد بها. ولكن بالنسبة لشخص قد فقد كل أفراد أسرته، يصبح الأصدقاء هم الدفء الوحيد فى ليالى الشتاء الباردة.

ولد إبراهيم فى شتاء بارد ورحل فى شتاء أشد منه برودة، ودفن وحيدا فى قبر غريب، بلا أقارب موتى يستدفئ بأرواحهم، أو أحياء تستأنس روحه بهم. رحل – بعدما خذلته للمرة التاسعة – بعد ليلة واحدة فقط من ذكرى مولده.

أفقت من ذكرياتى على صوت الصديق وهو يسأل:

– هل كان وحيدا؟

عندها وجدت نفسى أتساءل:

– ترى هل هو صديق حميم، أم أنه على هامش المعرفة؟

لم أستطع أن أنتظر حتى انتهاء المكالمة، فسألته بحركة من يدى دون أن أصدر صوتا: من؟

أشار إلى الكتاب الذى كنا نتحدث عنه منذ قليل، وكان لايزال فى مكانه على الطاولة.

«فساد الأمكنة»؟! عشر أعوام مضت على معرفتى به، كان مدعوا لحضور المؤتمر السنوى عندما علمت بوصوله، وكنت أعمل في العلاقات العامة بالجهة المنظمة للمؤتمر، وكعادتى كنت أتخير من أكن له التقدير لأتصل به مرحبة:

– أهلا بك فى بلادنا.

جاءنى صوته ودودا ومحببا:

– أهلا بك.

قالها بصدق أزال عني التوجس بالصد منذ الوهلة الأولى، الأمر الذىً جعل الحديث يطول بيننا، حدثته عن أعماله التى تدهشنى، وحدثنى عن العمل الجاد وصدق التجربة، تحدثنا عن «فساد الأمكنة» وما تلقيه على البشر من سمات وصفات، لم أضع السماعة حتى وعدنى بأن يرسل لى بكتابه الذى لايتوافر داخل البلاد. وبعد إنتهاء المكالمة راودنى الشك فى حديثه. لم أصدق أنه سيتذكر وعده عندما يعود للوطن، كما لم أصدق أيضا بأنه لايحمل أعماله معه، ولكنى بمرور الوقت اكتشفت أن الفساد الذى برع فى تصويره، قد نجا منه بينما سقطت أنا به.

الالتزام بوعد نقطعه لأشخاص نعرفهم أمر هين، ولكن أن نلتزم بوعودنا تجاه أفراد لانعرفهم ولا نخضع لعتابهم أمر لايتصف به الكثيرون. أدركت النوع الذى ينتمى إليه هذا الصديق، عندما ناولتنى السكرتيرة طردا مكتوب عليه اسمى بالقلم الأسود وكان قادما من القاهرة.

كانت الذكريات تتداعى عندما أوقفها صوت الصديق وهو يؤكد بفرح:

– لو مر عليه يومان فسوف يعيش.

هو حى إذن... حلق الأمل فى سمائى بالرغم من الخوف الذى يحوم حولها، فرصة للتكفير لم تتح لى مع إبراهيم، ذلك الصديق الذى مات فجأة قبل أن أتوقف عن أنانيتى معه. لم أدرك مدى أنانيتى إلا وأنا أجلس فى ذلك المقهى الذى شهد لقاءاتنا لتسع سنوات. كنا نلتقى فيه ونجلس على مقعدين متقابلين بيننا الطاولة والأوراق والنرجيلة التى لاتفارقه. ينشغل بالتدخين، وأنا أقص عليه ماحدث فى شهور الغيبة. وفى الوقت الذى كنت أحل فيه وأرحل فجأة، كان هو ثابتا فى مكانه. كنت أسافر وأعود فأجده فى نفس المكان يدخن النرجيلة، منتظرا وجها يعرفه، يطل عليه من بين وجوه المارة والمحيطين. هكذا كان حضوره قبل أن يتلاشى وهكذا كان قبوله لى. لقد قبل بأن يكون ذلك الذى أعود إليه كلما ضاق الزمان وأجده فى انتظارى.. رضى بهذا دون مقابل. ود ون توقع للمصير. أدركت هذا وأنا أجلس فى نفس الزاوية من المقهى بعد أسابيع من رحيله عندما فوجئت بشخص يقف أمامى ويستأذن فى الجلوس. قال :

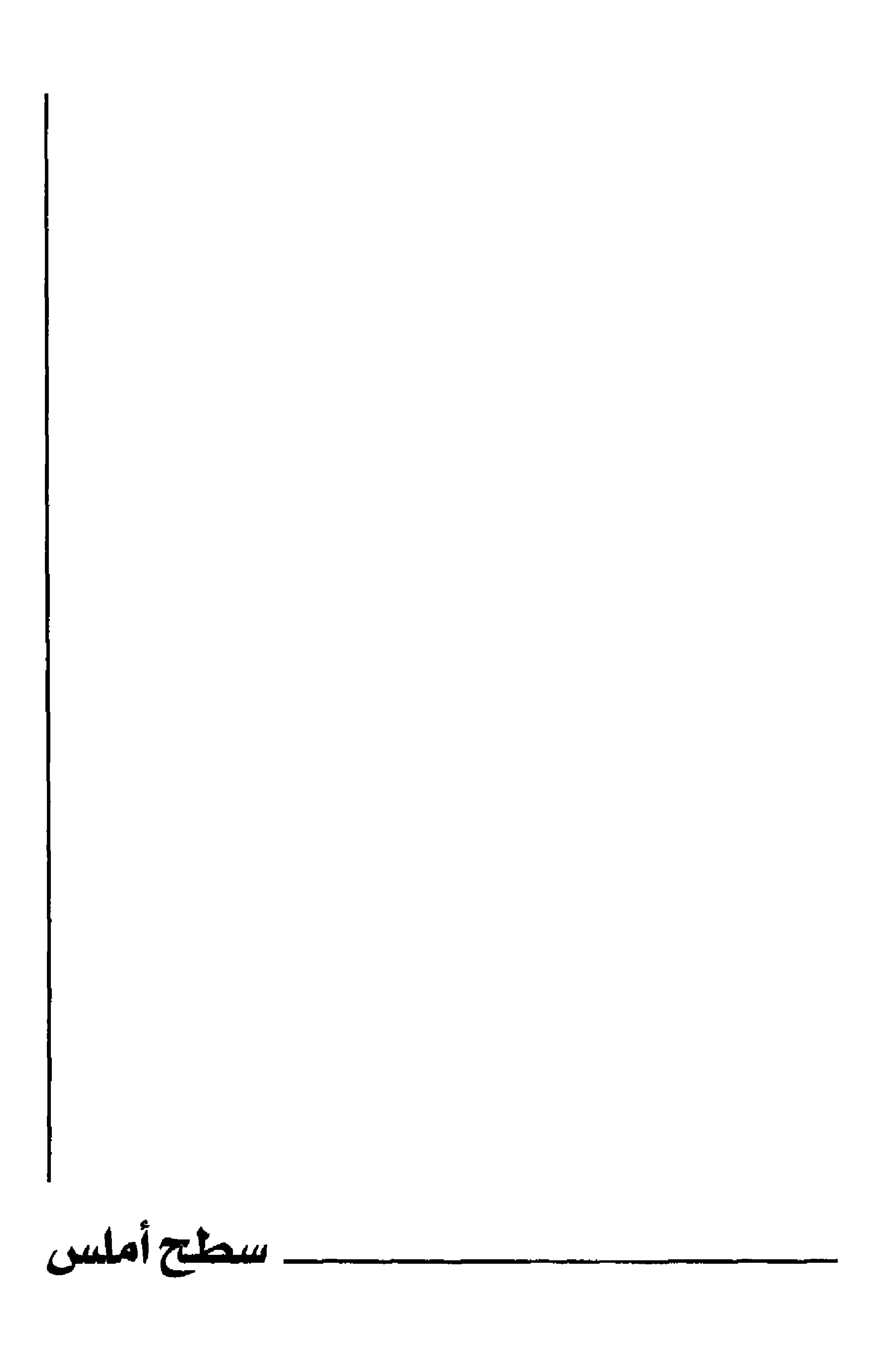
– أغفرى لى تطفلى فقد بحثت عنك كثيرا، لقد طلب منى إبراهيم أن أصنع لك مشبكا يحمل حروف اسمك، دفع لى قبل أن يرحل، ومات قبل أن يتسلمه.

ظل المشبك فى أدراجى يوخز ضميرى برقته. السلك الذهبى الرفيع، والخرزة البيضاء، والأخرى السوداء التى فى نهايته فى الوقت الذى تذكرنى فيه نسيت أنا وعدى له، تماما مثلما فعلت مع صبرى، ففى الوقت الذى تذكرنى وأرسل له بالدراسات التى جمعتها حول أعماله، ووعدت بإرسالها له، حدث هذا منذ ثلاثة أعوام سقط فيهم الوعد بين أعباء الحياة وهزال الذاكرة.

اليوم أستعيد وجه ابراهيم وأنا أسير فى الممر الطويل بالمستشفى أقرأ أرقام الغرف وبطاقة صغيرة تستكين فى يدى :

- أيها العزيز لاتكفى باقة ورد بجوار فراشك كى أقول لك أعتذر، فقط كن أكثر كرما وامنحنى بعضا من الوقت.

يونيو ٢٠٠٤



سطح أملس

استيقظت على حركة بجوار رأسى، صوت يشبه رفرفة جناح عصفور، بداية ظننت أننى أحلم، فكم من مرة منحت فيها نفسى أجنحة وأنا نائمة، وفى كل مرة كانت تخذلنى أجنحتى فأهوى بسرعة إلى الأسفل، وفى اللحظة التى أشعر فيها بأن قلبى يتهاوى ويسقط معى كنت أفيق على حقيقة أنى فى حلم لا أتمنى أن أعيشه مرتين. الآن بعد تجارب كثيرة تأخذنى إلى مناطق النضج، أتمنى أن أعيش ولو لمرة واحدة إحساس حقيقى بالخوف، أتمنى لو أتهاوى، أو أسقط من مكان عالى مثلما كى أنتعش بالفزع. بأنى نضجنا على حساب مانملك من أحاسيس، فنفقد مع براءة الجهل براءة الإحساس.

اليوم كنت يقظة تماما، وكان قلبى ثابتا مثل جبل من الصخر عندها سمعت صوت الرفرفة يعود من جديد.. واضحا جليا مثل استغاثة غريق. قمت من الفراش، أضأت المصباح، رأيتها هناك تقف فوق حافة الباب، بأرجلها الضعيفة، تحرك رأسها يمينا ويسارا باحثة عن الطريق، تحركت متجهة نحو النافذة محدثة رفيفا عاليا له هذه المرة إيحاء خوف لا تخطئه الأذن.

بدت لى لحظتـهــا مثــل طـفــلة ضـائعة لا تعرف طــريق النجاة، وفى لحظات سريعة طافت بذهنى ذكريات شديدة التركيز، كنت فيها تلك العـصـفـورة التى دخلت فـجـوة صـغـيـرة إلى فـــراغ كـبـيـر، لكنه مليئ بالجـــدران التى لا تسمـح لها بالخـــروج. وبغـض النظـــر عمن تسبب فى تواجدى به، اعتـبـرت نفسى مســؤولة عن تواجد هـــذه العصفورة فى غرفة نومى.

كانت تطير بعشوائية فى أنحاء الغرفة، تصطدم بـالجدران وهى تبحث عن منفذ للخروج. تتجه إلى المرآة.. تلقى بنفسـها عليـها، ثم تطير إلى جهة أخرى، وتعود لتكرر نفس العمل من جديد.

لم تكن المرة الأولى التى تسقط فيها عصفورة فى هذا البيت، كنت أعرف الفجـوة التى تضللهم وتغـريهم بالدخول. مـابين أطراف الجـهاز الخاص بطرد البخـار والروائح فى المطبخ توجد فجوات صـغـيرة لاتكفى لمرور أيدى البشر. لكنها تكفيِ لإغراء عصـفور صـغير بالدخول للاحتماء من قيظ الشمس. كم من عصـفورة دخلت من نفس المكان، وكم من مرة وقفت أراقبها وهى تلقى بنفسها على المرآة معتقدة بأنها طريق الخروج. لم أستطـع أن ألومـهـا، فالمرآة اللامعـة لاتغرى الطيـور فـحسب كثـير منا ينجذب إليها وهو لايدرك حقيقة كونه ينجذب إلى حجر. هذا مايحدث لى بالتـحديد، ينجـذب الناس إلى وهم لا يعلمـون أن مـايظهر منى مـجرد انعكاس لأحاسيس صادرة منهم هم وليست منى أنا.

هكذا أخذت أعقد المقارنة بيني وبين هذا الطائر الصغير. المرآة هى نفسى التى أرتد إليها كلما وقعت فى الفخ، وكلما ارتددت إليها لا أجد سوى حجر أملس ألقى بنفسى عليه. هذا ما أكتشفته وأنا أعيش في هذه العزلة أمد يدى داخل نفسى فلا أجد سوى سطح عاكس تسقط عليه الأمطار. ولا تنفذ داخله.

كانت العصفورة ترقص رقصة الموت مابين جدران الغرفة والمرآة. مثل ذلك الراقص الذى ألقى بنفسه على حبيبة طالما عشق صورتها وعندما لامسها، اكتشف أنه ألقى بنفسه على حجر.

حدث لى شىء مشابه، ذات يوم كنت أحضر حفلا غنائيا فى مكان ما، وكانت مناسبة وطنية تجمع فيها الكثير وللمشاعر طعم آخر عندما يشاركك بها آخرون، تستشعر ما يعيشونه ويعيشون ما تستشعره، تشعر أنك لست وحيدا فتتخلى عن ذاتك وتندمج مع من حولك فى ذات واحدة.

هكذا بدت كلمات الأغنية الوطنية مثل حمى أصابت الحضور، فقد اشترك الجميع فى ترديد كلماتها، وأصبح صوت المغنى مثل السحر الذى غطى على القاعة، ووجدتنى أسبح فى نفس التيار وأردد معهم «ذى يدى إن مدت الدنيا يدا»، كنت بالرغم من وقوفى وحدى أشعر بالتواصل، وبخيط شفاف يربط مابينى وبينهم.

زادت الحمى يومها حتى غطت على الآثام والاحباطات، تخطت الأشياء، وتخطت البشر حتى أصبحت ترج المقاعد والجدران. شعرت بالأرض تهتز من تحت قدمي وكأنها تشاركنا الغناء. كانت تهتز مع إيقاع آلات العزف، ومع اهتزازها تهتز قلوب الناس وضمائرهم، كانت تسحبنا إلى مناطق شفافة، تراجع فيها أنفسنا فنندم على الصراع الذى تخبئه بها. هكذا اكتست جميع الوجوه بلون واحد له نفس الصورة، نفس النظرة ونفس الأفواه التى فتحت جميعا لتنطق بالكلمات الأخيرة من الأغنية : «وسلاما يا بلادى».

عندما انتهى الغناء كنت بحاجة لأن احتفظ باللحظة، وأن أسجلها على شريط المشاعر، فأمسكت بها وتسللت وحيدة خلف الكواليس، جلست على مقعد كان ضمن مجموعة أعدت خصيصا لاستقبال الضيوف، لكنى لم أكد أجلس حتى سمعت صوت موسيقى للحن شعبى محبب إلى أذنى، لم أستطع أن أتعرف على كلمات اللحن، فتركت مكانى واتجهت إلى السلم المؤدى إلى خشبة المسرح، ثم أخذت أنصت باهتمام.

كانت الموسيقى قد دارت برأسي، وكان تحولها فى أذنى من لحن وطنى إلى آخر شعبى، مثل أن تتحول بفعل الخمر من نشوة النبيذ الأحمر إلى النبيذ الأبيض، كلاهما خمر وكلاهما نبيذ، هكذا وجدتنى أترنم بكلمات الأغنية «كعب الغزال» دون أن أشعر، وهكذا تذكرها لسانى قبل عقلى. أخذت أهمس بها وأنا أتابع الراقص فى ذهول. كان يلبس تنورة زاهية الألوان ويدور بها فى رشاقة، هذه هى إذن رقصة التنورة،

كنت أنجذب إليها وأنا أتابعها فى التلفان، لعلى أجد فى متابعتها إجابات على أسئلة كثيرة تدور فيِ ذهنيِ كلما رأيتها .

- ترى لماذا يبدو الراقص وكأنه فاقد للوعي؟

- من أين له بهذه الخفة، وهذه الرشاقة؟

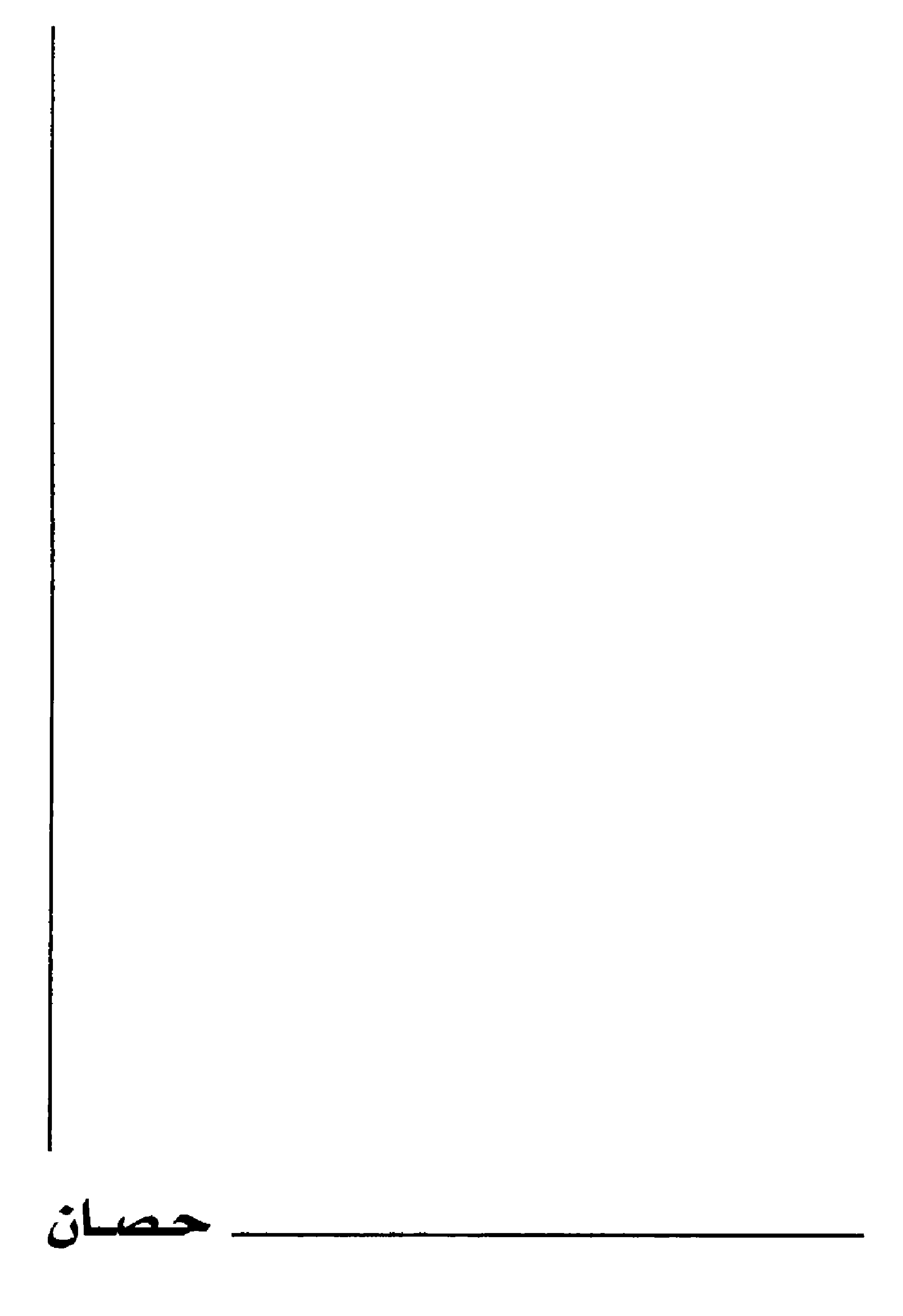
- كيف لا يفقد توازنه بالرغم من دورانه المتواصل؟

كان الراقص يرقص وكأنه قد غاب عن الوعى، انسلخ عمن حوله وتحول إلى عجينة يحركها الايقاع كيفما يشاء. يرقص بمهارة عفوية، يرفع التنورة إلى الأعلى ويغمض عينيه، ثم يدور بها حول خصره، وفجأة يخرج منها تنورة أخرى يحركها حول رأسه وهو واقف.. راكع أو ممدد على الأرض. يحدث كل هذا فى توافق مع النغم، وكأن اللحن يخرج منه هو وليس من آلات العزف. وبقدر ماكان حضوره طاغيا، بقدر ماكان يبدو غائبا عن الحضور. يبتسم وكأنه يرى وجها يبادله الابتسام. فجأة وقع نظره على، كنت أقف خلف الكواليس أراقب حركاته بدهشة، وعندما تلاقت نظراتنا اختل توازنه لثوان، عاد بعدها للتماسك من جديد. لحظتها قفزت إلى ذاكرتى الاسطورة: فتى كان يرقص أمام صورة محفورة على حجر، وبينما هو يرقص رفع رأسه ليرى الصورة وهى تخرج من الحجر، وقد تجسدت أمامه أنثى بكامل جمالها، عندها ألقى بنفسه عليها، وإذا به يلقى بنفسه على حجر.

عادت مع الصورة تفاصيل رواية قرأتها ذات يوم، كان البطل يرقص فيها رقصة الخنجر، وكان يتخيل وجها يتابعه أثناء الرقص، امرأة تبتسم له في الزحام، وفي كل مرة ينتهي فيها من الرقص كان يبحث عن ذلك الوجه فلا يجده، المرة الوحيدة التي وجده بها، وجد امرأة ماثلة أمامه بكامل هيأتها، عندها اختل توازنه واختلت حركته، فجرح نفسه بالخنجر الذي يرقص به، وسالت الدماء من جسده.

لا أعلم إن كنت قد توهمت اختلال الراقص في تلك الليلة عندما وقع نظره عليّ، أم أني قد أسقطت حالة الرواية عليه، وعلى العصفورة التي كانت حبيسة الغرفة، ترقص رقصة الموت على الجدران وهي تلقي بنفسها على المرأة فتصيب جناحها الرقيق، تذكرت كل هذا وأنا أطفئ المصباح كي ترى النور القادم من الشرفة، فتتجه إليه وتخرج للفضاء لتحلق في السماء متجهة إلى البعيد.

يناير ٢٠٠٤



حصان

كنت وأنا طفلة أراقب صورته فى التلفاز، أحاول تقليد حركته وأتصور أنى لو استطعت فسأشعر حتما بالسعادة.. فقط لو قدر لى أن أشبهه.

بدلال كنت أسير، أشعر بالفخر وأنا أحرك غرتى كما يفعل هو بغرته، أحرك رأسى يمينا ويسارا كى يتحرك معها شعرى الذى أربطه من الخلف على شكل ذيل فرس طويل. هذه هى الصورة الوحيدة التى أحببت فيها شعرى طويلا... فقط كى أشبهه.

أول لقاء لى معه عن قرب كان وأنا فى الخامسة عشر، كان يقف أمامى صامتا يحرك رأسه فى شموخ له غرته، يرعش جسده كى ينفض عنه الذباب، بينما ينساب ذيله ناعما وطويلا بين ردفيه. وكنت أتأمله فى دهشة فقد كانت قوائمه الأربعة تحمل جسده الضخم فى رشاقة تذهلنى: كيف تحمل هذه القوائم النحيفة هذا الجسد الكبير!؟ ارتفاع قامته جعلنى أرهب ركوبه. لم أتصور أنى سأعتلى صهوة هذا الكائن، وأكون مكان أولئك الذين أراقبهم بحسد وهم ينطلقون به على شاشة التلفاز.

كنت قد وصلت للتو من القطر الذى أعيش فيه، عندما قررنا فجأة الخروج فى جولة لرؤية معالم المدينة، ونحن خارج المنزل وقع اختيارنا على منطقة الهرم. لم أكن على استعداد لركوب الخيل، لكنى لم أكن على استعداد أيضا لأن أفوت مثل هذه الفرصة حتى لو كان على حساب مظهرى الخارجى.

كانت الشمس حارقة، وكنت قد ركبت الحصان بعد أن غطيت رأسى بحقيبة يدى، ضغطت بفخذى على جسده وأمسكت بالعنان، ثم بدأت بالسير. لم تكن ملابسى ملائمة للركوب لذا تكشفت ساقى بعض الشيء. ولكن هذا الوضع لم يدم طويلا، إذ مر بجوارى حصان يركبه رجل كان يبدو أنه مثلى، قادم من مكان بعيد. كان يضرب الهواء بسوطه ويهمز حصانه بقدميه ليحثه على الإسراع، ويبدو أن السوط قد أصاب الحصان الذى أركبه فقد انطلق هو الآخر بأعلى سرعته، وفجأة تغير كل شيء.

كان الحصان يجرى بأقصى سرعته، وخشيت من السقوط فتمسكت بالسرج كى لا أطرح أرضا. وكانت الحقيبة التى غطيت بها رأسى قد سقطت على وجهى حتى حجبت عنى الرؤية بأكملها، وأخذت أذناى تلتقط تعليقات الشباب حول أسرارى التى تكشفت عندما ارتفعت ملابسى تحت سرعة الحصان. كانت صيحاتهم تأتى من الأماكن التى يصطفون بها مكثفة عشرات المرات وبالرغم من ذلك.. بالرغم من الخوف والخجل إلا أننى شعرت بإحساس لم أعشه من قبل.

ظل الحصان يجرى حتى وصل إلى منطقة نائية، وهناك.. مثلما انطلق فجأة توقف أيضا فجأة، مددت يدى لأرفع الحقيبة عن رأسى وكانت المفاجأة! لقد توقف بجوار جرف عالي فوق جبل صخرى، ولو أنه تقدم خطوة واحدة لسقط وأسقطنى به. بوغت فالمكان الذى يقف فيه كان من العلو إلى الدرجة التى أفزعتنى. تسمرت فى مكانى فوق ظهره، بينما ظل هو يدب بقدميه فى حركة متواصلة. خفت من تحركه الموسوم بالقلق، فأرخيت له العنان وأدرت السير إلى اليمين، وبهدوء شديد استدار للخلف. وما إن استدرت حتى رأيت ذلك الرجل أمامى، كان قد وصل بعدى بثوان قليلة، متأنقا فوق صهوة جواده مثل من يركب الخيل فى حلبة سباق. يلبس زى الفروسية كاملا ويبتسم. قال بعد أن استقر حصانه بجوارى:

- لم أتصور أنك خيالة، هل تسابقينى مرة ثانية؟

وقبل أن أفتح فمى كى أعترض أو ألتقط أنفاسى، كان قد ضرب حصانى بسوطه وانطلق من جديد.

كانت لحظة مرعبة ومنعشة فى نفس الوقت، منحتنى شعورا بالحرية والانطلاق ظللت أنشدهما فى كل مرة أركب فيها الخيل، لأجل ذلك قبلت الدعوة لقضاء يوم فى إحدى المزارع بالصحراء.

كان أول هدف جميع لزائرين هو استطبلات الخيل، ولما كنت الأخيرة فى الوصول كانت الخيول قد غادرت المكان ولم يتبق سوى

حصان واحد لا سرج له. وأمام إلحاحى اضطر السائس لأن يضع لى غطاءا من الصوف على ظهره قبل أن يسمح لى بالانطلاق.

ركبت الحصان وضغطت على جسده بفخذى... هذى المرة لا أذكر كيف انطلق، لكنى أذكر فقط أنه قد توقف فجأة مما أدى إلى انزلاق الغطاء وبالتالى انزلاقى أنا الأخرى. كانت الأرض مليئة بالحجارة الحادة، فشعرت بالألم يكاد يمزق جسدى المتهاوى، كان الحصان يدور حول نفسه فى حركة متوترة، يصهل فى قلق واضطراب بالغين، خشيت أن يدوسنى بحوافره، فتحاملت وقمت واقفة على قدمى، وضعت يدى على ظهره، ثم ربت عليه، لكنى لم أكد أمرر يدى على جسده حتى وجدت نفسى ملقاة مرة أخرى على الأرض. هذه المرة لم أتمكن من الوقوف على قدمى، شعرت بألم حاد أعلى فخذى، استغرقت دقائق حتى أدركت أن الحصان الذى كنت أربت عليه بيدى لأهدئه قد طرحنى أرضا بحافره.

فيما بعد علمت أن الحصان الذى يحب أن تمسد جسده بيدك، يكاد يصاب بالجنون لو لمست بها ردفيه، وهذا ماقمت به دون قصد فكان نصيبى الرفس بقدميه. فعل ذلك بعد أن طرحنى أرضا كى لايسقطنى عبر جرف عالى إلى بحيرة توجد فى الأسفل حيث مزارع الأسماك. تماما مثلما حدث مع الحصان الذى ركبته أول مرة والذى توقف فجأة كى لا يقذفنى من أعلى الجبل، ولعل هذا كان سبب توترهما فى كل مرة سقطت بها.

تذكرت جدى عندما نصحنى.. كان قد رآنى وأنا أمسك بصورة لحصان أشهب اللون أتأملها بإعجاب، قال لى ولم أكن قد ركبت الخيل قط:

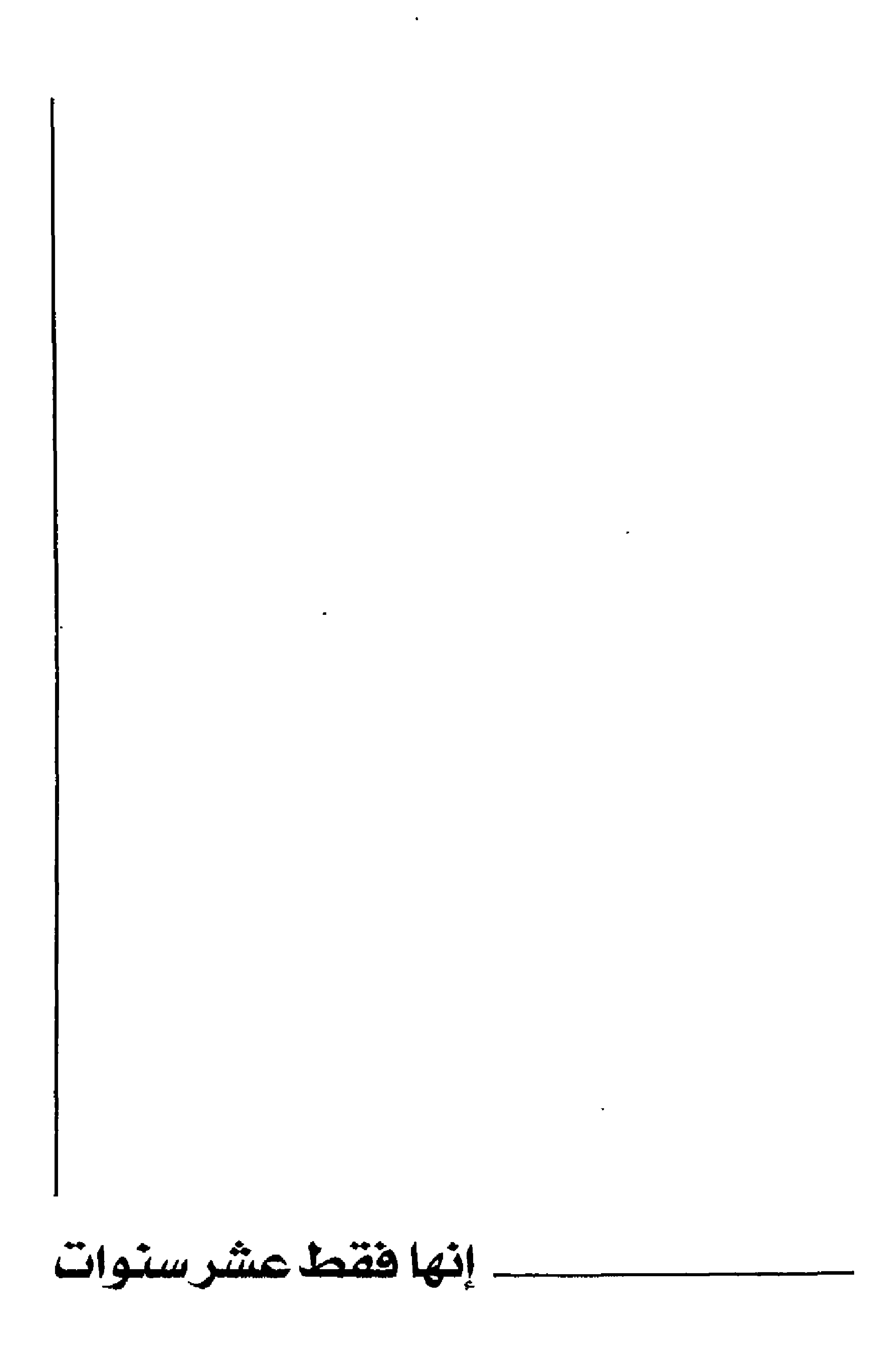
- لو قدر لك أن تركبيه ذات يوم، اضغطى بفخذيك على جسده عندما تعتلين صهوته وعندما سألته عن السبب أجاب :

- سيدرك حينها مدى حبك له.

فعلت هذا فى كل مرة ركبته فيها، ولعله قد أدرك مدى حبى له فى كل مرة طرحنى فيها أرضا كى ينقذنى من الموت.

أغسطس ٢٠٠٤م

المحطة الثالثة ...



بعد عشر سنوات تلتقى به، هو الذى ترك كل شئ وغادر بلا رجعة، تراه هنا على جانب النهر، بجوار المعدية، ينتظر دوره فى الركوب، يحمل رغيف خبز ولفة صغيرة، لعلها قطعة من الجبن، بل هى قطعة جبن بالفعل، ليس لأن الورقة البيضاء قد اهترأت بعد أن تشربت بالماء، ولكن لأنها إحدى الأطعمة القليلة التى يواظب على أكلها بسبب كونه نباتيا. هل لكونه نباتيا كان بهذا النحف، طويلا مثل نخلة تكاد أن تنحنى؟

على ضفة النهر وقف منتظرا دوره فى الركوب، عرفته بمجرد النظر إلى وجهه، ملامحه التى لم تتغير كثيرا، لم يرد عليها سوى لحيته الطويلة، حتى شعره أصبح أكثر طولا. فى الماضى كان قصيرا، تذكر كم من مرة توسلت إليه كى يتركه مسترسلا دون حلق، إنها لم تتمكن حتى من دس أصابعها به ذات يوم، كل ما أمكنها فعله هو أن تتحسس بيدها رأسه الصغير، تحركها للأمام وتتجنب إعادتها للخلف كى لا توخزها الشعيرات التى بدأت فى الظهور.

هل لكونه نباتيا كان له هذا الرأس الذى - لصغره - يشبه رأس طفل صغير؟ لا زالت ملامحه كما هى، بالرغم من اللحية التى أوشكت أن تكون بيضاء، ترى كم أصبح عمره الآن؟ لحيته التى أكلت جزءا

كبيرا من وجهه، والتي تدل على أعمار تتعدى عمره الحقيقي، تجعل تقاسيمه محيرة، وجه مثلث، مدبب من عند الذقن، وحاجبان متلاصقان، كوجه ثعلب. مثل جرو ثعلت صغير كان يبدو وجهه وهو خافض لرأسه، لا تخشى منه، وديعا وهو ممسك ببراءته.

عرفته بسبب البثور التي رسمت علي وجهه خارطة من النبل، وشفتيه التي كانت تبدو وكأنها لم تفتح عندما يهمس باسمها، هي نفس الشفاة التي تتحول إلى كيان مستقل أثناء تقبيلها، يصبح لها أذرعا تحيط بها من كل جانب، عشر سنوات مضت على تلك الأيام. وقبل أن تتمادى في ذكرياتها نظرت إلى المكان الذي كان تميمة لها، وجدته مغطى بأكمله، ستتأكد منه لو أنها رأته، لازالت تذكر كيف كانت تنهار أسوار الصمود بداخلها بمجرد النظر إليه.

«كالمرآة» كان وجهه منذ عشر سنوات، مثل صفحة الماء، يعكس مشاعره دون خداع، كم تمنى أن يكسر الوضوح به، شكى لها ذات مرة، البنات اللاتي باح لهن بالحب وجهه قبل أن يتحرك به لسانه، وكيف أنهن كن يكتشفن ذلك دون رغبة منه. قص عليها كيف استنفذت إحداهن قطرات دمه، وكيف امتصتها حتى آخر قطرة، دون أن تسمح له بالارتواء. تذكر الحزن الذي كسى عينيه وهو يحكي كم رجاها مرارا أن تسمح له فقط بتمشيط شعرها.

في المعدية جلست أمامه. لازال نحيفا، وبالرغم من ذلك لايبدو ذلك الذي غلف الحرمان جسده بالنحول، نظر إليها، لم يظهر في عينيه

مايشير إلى تعرفه عليها، بل بدا وكأنه لم يرها من قبل، للحظة شكت فى معرفتها به، هل هو حقا، أم أنه شخص مشابه له؟ تمنت لو ترى ذلك المكان الذى سيكشفه لها، مثل البصمة سيدلها على شخصيته، تعرفه وتعرف تفاصيله عن ظهر قلب، لازالت صورته محفوظة فى ذاكرتها، لو أنها رأته، حتما ستسرى فى أطرافها تلك الرعشة التى سرت فيها مئات المرات من قبل، هو الذى يملك شيئا لم يملك مثله أحدا من قبل، تمنت لو تمزق الأشياء التى تحول بينها وبينه، فقط كى تتأكد منه.

على الشاطئ الآخر توقفت المعدية، وقف منتظرا دوره فى النزول، بدا نحوله أكثر حضوراً مع هذه الملابس التى يرتديها، ملابس أو أسمال، مهترئة ومكرمشة، لكنها بالرغم من ذلك تبدو نظيفة، بل حديثة النظافة وكأنها قد رفعت لتوها من على الحبال. نظر إليها، وضع قدمه على حرف المركب والقدم الأخرى على الأرض، هبط دون أن يمد يدا لمساعدتها، فى الماضى كانت يده تمسك بيدها وهما يجوبان شوارع العاصمة، مثل المزاليج تغلق عليها فلا تستطيع الفكاك منها. يخشى لو أنه تركها أن يفقدها للأبد، هكذا أجاب عندما سألته ذات مرة عن سر تمسكه بها. تذكر المرات التى اختلفوا بسببها، كان يفضل أن يمسك بيدها أثناء سيرهما فى الشوارع، بينما تفضل هى أن يضع يده على كتفها.

هبطت من المعدية وصعدت إلى الطريق الأسفلتى، هذه الضفة من النهر لم تطأها قدماها من قبل، لم تخطط للذهاب إليها، كانت تجلس

على السور، تتأمل صفحة المياه وهى تتلألأ تحت أشعة الشمس، تراقب المراكب وهى تنقل الأفراد من وإلى الضفة الأخرى، وكانت تنوى المغادرة قبل أن تقع عيناها عليه.

تعرف كيف تركت المدينة وجاءت إلى هذا المكان النائى، وتعرف كيف انتقلت للعيش بها تحت إلحاح الأسرة والأقرباء. عشر سنوات مضت على فراقهما، عندما سقطت فى المرض، وتحت ضغط المرض والخوف من الموت انتقلت للحياة مع أقربائها، ولكن هو الذى كان يعشق المدينة، ويعشق حاراتها وأزقتها. لاتعرف كيف انتقل للعيش فى هذا المكان. تبعته عن بعد، كان الطريق الذى يسير فيه متربا يرتفع بعض الشىء عن الأراضى الملاصقة، وعشش من الصفيح تتناثر عن يمينه ويساره. قليل من البشر، وكثير من الماعز والخراف. هو الذى هاجر من قريته حبا فى العاصمة كيف قبل بالحياة فى مثل هذا المكان؟ ولماذا عندما تركها لم يعد لقريته؟ لا تتذكر من حديثه الأخير سوى عبارته الغامضة، كررها مرارا ولم تفهم معنى لها:

– سأرحل كى أنجو.

تذكر عندما بكت، كيف توسلت إليه أن ينظر فقط إلى عينيها، كانت على يقين من أنه لو نظر إليها سيتراجع فورا عما قرره. لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل، كان يبدو وكأنه لايستمع إليها، تذكر أيضا كيف فقدت الأمل عندما زاغت عيناه إلى البعيد وهو يردد:

– أريد أن أنجو... أريد أن أنجو.

كان فى نظرات عينيه قرار يقينى، وصعود لا يمكن التراجع عنه.

طال الطريق وهى تحدث نفسها بالرجوع، كان الطريق قد بدأ فى الصعود تدريجيا، وكانت أقدامها قد بدأت فى التعب عندما لاحظت أن العشش الصفيح قد بدأت تقل، وكذلك الماعز، والخراف، ورائحة طعامهم، ومخلفاتهم. كل شىء بدا فى التناقص حتى اختفى تماما ولم يعد سواهما يسير فى الطريق. شعور خفى راودها، أنه يعرف بأن هناك من يتبعه ولكنه يرفض النظر إليه، هل هو اليقين الذى كان ينشده، أم أنه يخشى من النظر إلى الوراء؟ لازالت تذكر كم حيرها انفصاله عنها، اليقين الذى تركها لأجله، كيف طغت قوته على قوة حبه لها؟ أفزعتها كثيرا فكرة اليقين والوهم، جعلتها غير قادرة على التمسك بالأشياء، قربت إليها كون الموت على بعد خطوات منها، وأنه هو اليقين الوحيد فى هذه الحياة، لذا قبلت بالحياة مع أقربائها فى هذه القرية النائية.

كان انفصالهما عن بعض هو الضربة القاضية لليقين عندها. كم اعتقدت واعتقد هو أن فراقهما لن يكون إلا بالموت، المرة الوحيدة التى اختلفا فيها، وسافر كل منهما بعيدا عن الآخر، عادا أكثر التحاما بعد أن سقطا فى المرض، تعلقه بها حسدها عليه الأصدقاء، كان يتبعها كظلها فى كل مكان، غرف البيت، المطبخ، وحتى فى الحمام. سرت فى جسدها رعشة وهى تتذكر كم كانا قريبين، أيعقل أن يكون هو ذلك الذى يسير أمامها، لاترى منه سوى ظهره، ويمسك فى يده بقطعة جبن ورغيف من الخبز؟ لو نظرت فقط إلى المكان الذى سيكشفه لها، ارتعشت وهى تسأل نفسها:

- ماذا لو كان هو ؟

بكت وهى تخشى اللحظة التى سيرفضها بها، والتى ستؤكد لها - مرة أخرى - على عبثية الأشياء. نظرت خلفها كان النهر والمدينة الصغيرة والعشش المتناثرة، تبدو من أسفل مثل أشباح تكاد أن تختفى. أذهلها صغر المساحة التى تحتلها، فكرت أنها لم تكن تستحق ذلك العناء، لماذا اختارت هذا المكان كى يكون مثواها الأخير؟ عاودت السير، وقد قررت هذه المرة الاستمرار بلا خوف.

تحت سقف خشبى جلس مادا قدميه، عشة من الخشب وبقايا الصفيح، هذا هو مسكنه. بدا المكان نظيفا ومرتبا، وكأن أسرة تعيش بداخله. وقفت بالباب، أمامه مباشرة، لم ينظر إليها، قرأت فى وجهه ملامح إحساسه بها. هو حتمًا يشعر بوجودها، منحها هذا دفعة من الثقة جعلتها تتقدم للأمام. مد يده إلى قدميه، خلع عنهما الحذاء، هذا ماكانت تنتظره منذ أن رأته، نظرت إليهما، لاجوارب تخفيهما عنها، سرت فى جسدها قشعريرة تعرفها منذ زمن، تهاوت بالقرب منهما، لستهما بكفها، إنهما هما، لم تزد عليهما سوى بعض الشقوق الغائرة. انحنت حتى لامستها بوجهها، شعرت بيده تمسح رأسها، ثم ظهرها، قال :

- أريد أن أنجو.

قالت وهى تلثم قدميه :

- خذنى معك .

أبريل ٢٠٠٥

في صباح يأتي لك دون أن تذهب له، كأن تكون مستيقظا طوال الليل، تتجول في شوارع المدينة، فيتسلل إليك دون أن تشعر به، دون أن تكون مضطرا لأن تصحو من النوم كي تشاهده. في صباح مثل هذا سيكون لقاؤنا الأول. في أحد المقاهي القديمة أو حتى الحديثة، لا يهم، المهم أنه سيكون مطلا على البحر وهذا ما سأسعى له. أن نجلس متقابلين، وجهي للبحر وظهرك له كي أتمكن من رؤيتك ضمن اتساعه الكبير. وسأسأل نفسي عندما أرى موجه، ماوجه الشبه بيني وبينه؟ كلانا جامع مانع، بحر من العطاء والحرمان معا، مهما أعطى يظل مالحا، لعل هذا أيضا هو وجه الشبه بيني وبينك. سأنظر أسفل رقبتك لأرى الشعر الأسود في صدرك يخالطه البياض، وسأفكر وهو يطل من فتحة قميصك لو أني أستطيع أن ألمسه، ولما لا أستطع سأرى نفسي مثل البحر الذي يقف عاجزا أمام مايملك. فلا يستطيع أن يسقي نفسه شربة ماء.

في ذلك المقهى المطل على شاطئ البحر، ستتأمل وجهي الأسمر في محاولة لقراءته، سأتوتر بعض الشئ عندما تتفحصني بعينيك، لكني سأعود لتوازني عندما أسمع نبرات صوتك الهادئ من جديد. هدوئك وأنت تنطق بحروف المد سيذكرني بالأحدب في «نوتردام». ستستفز

طيبتك ما أخبئه في صندوقي تحت الفراش، ستجعلني أعتقد بأنك ذلك الآخر الذى أتمنى أن يلمسنى عندما أرغب فى البكاء، وعندما أصل إلى هذا المنعطف سأتسلح بالصمت.

فى ذلك اليوم ستسأل عن أشياء معتمة. وستأخذنى أسئلتك إلى مناطق مليئة بالأشواك لايجوز أن ألقى بها فى طريقك فى أوائل لقاءاتنا، سأنسى ذلك وأنا أقارن بين هدوئك الخارجى الذى يوحى به نبرة صوتك، وصخبك الداخلى الذى يظهر فى أسئلتك المتلاحقة، شراهتك فى معرفة الآخر والدخول إلى عالمه ستجعلنى أتلقى أسئلتك بحذر، ستقرب إلى الظن بأنى لست سوى كتاب ترغب فى قراءته.

فى ذلك الصباح سأقترح أن نسير معا على الشاطئ ، وسأطلب منك أن تأخذنى إلى مكان ملئ بالصخور، حيث يمكننا أن نجلس متجاورين، نراقب أمواج البحر وهى تتحول من اللون الأزرق إلى الأبيض، نتأملها وهى تتكسر على صخور الشاطئ مثل قطع من زجاج أو جليد. ستذكرنى الرغاوى الفضية التى تتركها على الطحالب الخضراء بأشخاص قد مروا من هنا، وسأفكر أننى وأنت سنعد أيضا ممن قد مر من هنا. لن نستطيع أن نترك بصمتنا على المكان، ولن نسمح له بأن يفعل معنا. ستضع يدك على الصخور وتبحث عن مواضع لقدميك، ثم تقفز برشاقة وتمد يدك الى، سأفكر حينها بمدى حاجتى لك. عندها سأمد يدى، وعندما تسحبنى إلى الأعلى سأفاجأ بقوتك فاستسلم لك، ستذكرنى قوتك بقوة ذلك الرجل الذى أنقذنى من التدحرج على سلالم المترو عندما اختل

توازني وسقطت في وضع عكسي. كنت قد فقدت الأمل في وقوفي على قدمي عندما بدأت أتدحرج على درجات السلم الكهربائي. وكان الدرج كلما ارتفع إلى الأعلى كلما ازداد تدحرجي إلى الأسفل. وأنا في هذا الوضع المقلوب رأيت قدمين تقفزان السلالم مسرعة من أجلي، وفي ثوان كان صاحبهما يمسك بي، حاولت مساعدته لتجميع أطرافي المبعثرة، ولكن محاولاتي كانت تعيق تحركه فسكنت تماما وتركت له عبء الموقف، تركته يحملني بقوة، عندها سرى في جسدي شعور بضعف لذيذ فاستسلمت له حتى أوقفني على قدمي.

كان لملمس يديه حضور عجيب، وكانت المرة الأولى التي أقتنع فيها بحاجتي إلى قوة رجل. لأول مرة تقترن فيها القوة بالفروسية عندي، وفي الوقت الذي تحولت فيه إلى ماء عذب كي أشكره.. في نفس الوقت الذي تمنيت أن أنساب فيه كنهر بين يديه، كان قد قفز داخل القطار مختفيا إلى الأبد. سأتذكر كل هذا وأنت تجذبني إلى الأعلى وتجعلني أتمنى أن تكون ذلك الذي اختفى قبل أن أحدثه ولو لدقائق قليلة.

على إحدى الصخور سنجلس متجاوران، ستعاود أسئلتك عن ماضي وحاضر لا يتفقان، سأقترح عليك لعبة توقف نزف الأسئلة : أن نصمت لدقائق نتأمل فيها الفضاء ويغوص كل منا في الآخر، فجأة ينقلب صفاء عينيك إلى حزن بعيد، ستصمت وتراقب الفضاء من أمامك، تبدو وكأنك تستعيد شيئا قد تسرب من بين أصابعك. سأجدها فرصة

كى أتأمل وجهك عن قرب، وأرى ثغرات بشرتك وشقوقها، خال صغير، وندبة ربما تكون أثر جرح من أيام الطفولة. سأنظر إلى رأسك وأتمنى أن أمرر أصابعى فى شعرك لكنى سأتراجع عندما تسألنى سؤالك الأخير :

- هل تخافين منى ؟

سيكون هذا هو السؤال الأول الذى أتمنى أن نبدأ به الطريق إلى حيث تأخذنا أقدامنا...

لأجل هذا كله سأخرج الليلة إلى الطريق، ربما يتسلل إلى صباح يأتى لى دون أن أذهب له.

يوليو ٢٠٠٤

المحطة الرابعة...

تصحو من النوم، تعرف ماذا ستفعل هذا الصباح، بالطبع ستضع إناء الماء الأزرق ذى المقبض الخشبى على النار. سيصادف مثل كل مرة أن يكون به بقايا من الماء المغلى بالأمس، وهى مثل كل مرة سترمي بالماء البارد فى حوض الغسيل. ربما كسلا ستضع نفس الماء على النار ليعاود الغليان من جديد. وربما لو كانت صافية البال، ستتذكر أن الزرع المتدلى من المكرمية فى الممر أمام المطبخ بحاجة للماء، وقبل أن تسكبه عليه ستمسك بإحدى فروعه المتشعبة، تحدثه وهى معجبة بقدرته على الصمود. هو الذى استطاع أن يصمد كل هذه السنين أمام ذاكرتها المهترئة، ويمد أفرعه متوغلا فى هذا الممر الطويل. ستفعل كل هذا قبل أن تدخل الحمام لتخرج أكثر نشاطا، وترفع الماء المغلى لتصبه فى فنجانها باستمتاع.

بالطبع هذا ماسيحدث لها عندما تتذكر أنها ستشرب القهوة بعد قليل. ستمر بها المراحل الثلاث التى تعيشها كلما استيقظت من النوم، ذكرى القهوة، ثم رائحتها، وأخيرا مذاقها. مجرد ذكرى القهوة يعيد إليها الأمل فى استعادة ما ضاع منها، ورائحتها تكفى لكى تعود إليها الراحة والهدوء. أما مذاقها – تلك الحالة المكثفة من العشق – هو مايجعلها تجزم فى كل مرة تصنعها بها، أن الله قد خلق القهوة كى يكافئ بها البشر.

خلال سنينها الثلاثين تعلمت كيف تخلط أنواعا مختلفة من البن، وتصنع منها أنواعا جديدة. تخصص كل نوع لموسم أو مناسبة معينة، وهى بالرغم من ذلك تشترك جميعا فى سمتها المحببة، قهوة مرة... سادة أو محوجة. تعلمت أيضا فى سنينها الثلاثين كيف تمنح نفسها مشاعر مختلفة فى كل مرة تتذوق فيها نوعا من أنواع القهوة.

اليوم تعلم أنها ربما ستختار النسكافيه السادة بلا حليب أو سكر، عندها سيزورها نفس الإحساس القديم. ذلك الإحساس الذى يتسرب إليها عندما ترى تباين لونها الداكن مع بياض البورسلين النقى، سيهيأ لها أنها تشربها على أريكة مريحة أمام شاشة تلفاز، أو على مقعد دوار أمام شاشة الكمبيوتر، لايهم، المهم أن أيا منهما سيكون بالقرب من نافذة زجاجية محكمة الغلق، وستكون هذه النافذة لغرفة فى مبنى عتيق، وسيكون هذا المبنى فى مدينة تلتف شوارعها بالثلج أو الضباب. وسيكون للقهوة حينها نفس الطعم ونفس الإحساس القديم... الوحدة الممزوجة بالحرية.

فى هذا الصباح ستختار هل تمنح نفسها الشعور بالحرية أم الانطلاق؟ هل تختار فنجانها البورسلين الذى لم تقاوم إغراء بياضه الناصع وهى تتأمله فيِ واجهة العرض بإحدى المحال؟ ذلك الذىِ يحمل رسومًا لفراشات صغيرة تحلق مابين أوراق شجر خضراء. ربما تختاره لتضع به ملعقة صغيرة من النسكافيه وتصب عليها الماء. وربما تستبدله بفنجان صغير، بالكاد يحوى رشفات من القهوة الخضراء.

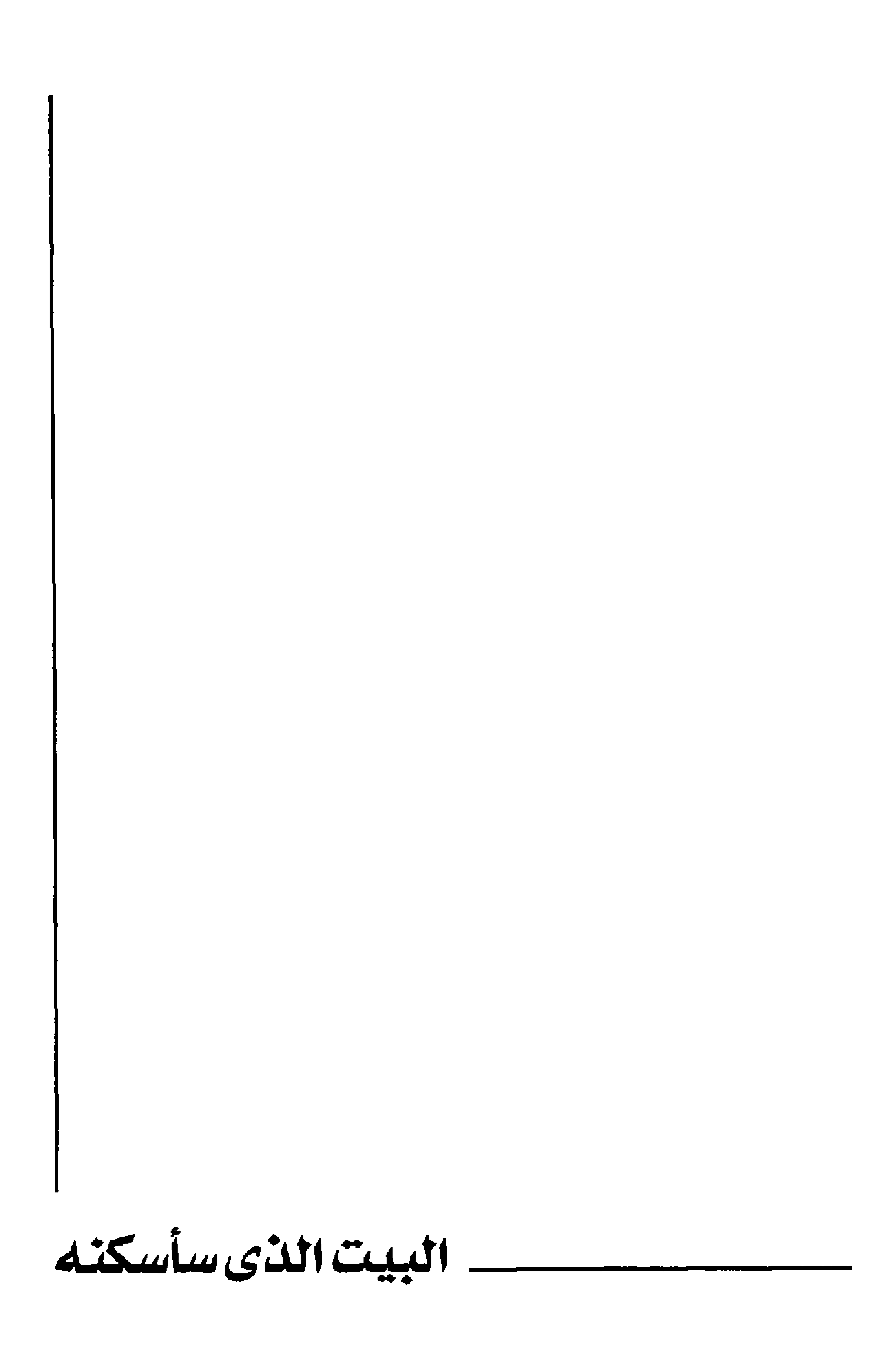
هى التى تعرف تماما كيف تجعل القهوة خضراء مموجة بالذهب، أو ذهبية مموجة بالخضرة، سوف تتولى أمر تحميصها بنفسها. فى الماضى كانت تعد العدة كى تقوم بطقوسها، تخرج للحديقة الكبيرة الممتدة كالغابة حول البيت، تشعل الفحم وتنتظر حتى تشب فيه النار، ولما تكتمل تضع عليه الوعاء الحديدى الثقيل ذو الذراع الطويل. تضع فيه حبيبات القهوة الخضراء، ثم تمسكه بيدها اليسرى، بينما تقلب باليمنى حبيبات القهوة كى لاتحترق، تنتظر حتى تفوح رائحة شهية من البذور، فتلتقط بعضا منها فى يدها وتقلبها فى حذر، وعندما يصبح لونها ذهبيا ترفعها من على النار وتبدأ فى دقها، قبل أن تضعها على الماء لتغلى فوق جمر الغضا(*). ستشعر بطزاجة الحياة عندما تبدأ فى دق حبيبات الهيل قبل أن تضيفها للقهوة. فى كل مرة تفعل ذلك وهى تفكر فى نوع الحلوى التى ستتناولها معها. هل ستكون شكولا بالكراميل؟ أم تمر محشو باللوز والسمسم؟ اليوم قد تنتظر قليلا قبل أن تقرر استخراج بعض حبيبات التمر من الثلاجة، ثم تصب لنفسها فنجانا صغيرا، لتشعر بالانطلاق وهى تستمتع بمذاقه المر، تتخيل نفسها على صهوة جواد جامح ينطلق فى صحراء لا حدود لها. ستحتسى القهوة، وسينسيها طعمها ما مر عليها من سنين العزلة فى منزلها الكبير.

(*) نوع من النباتات الصحراوية التى يتميز جذرها بالقوة والصلابة.

عندما تصحو هذا الصباح ستحتار ماذا تشرب. ستفكر أن تعيد فنجانها الصغير الذى لايد له إلى الرف، وتخرج بدلا منه فنجان جدتها القديم. ذلك الذى عبر إليها عن طريق أمها، ستخرجه من دولابه الزجاجى، وتتأمله فى إعجاب، هو الذى يشبه زهرة متفتحة، ويبقى صامدا بالرغم من طول السنين. ستضعه على طبقه الصغير المصنوع من الصينى الشفاف على شكل ورقة شجر، ربما تختار أن تشرب فيه قهوتها التركية، عندها ستسكب بعضًا من الماء المغلى فى إناء صغير بالكاد يكفى لفنجانها، وتضيف إليه ملعقة من البن القاتم، وعندما ترفعها على النار ستتذكر تلك الطبقة السميكة التى تحبها، وستفكر وهى تصبها فى الفنجان الصغير، كيف أنها فى كل مرة يصدمها مذاقها المر القابض، وكيف أن هذا المذاق يحملها فى كل مرة أيضا إلى عشرين عاما قادمة. ستحتسى القهوة المرة وتتخيل نفسها بعد عشرين عاما، وهى فى الخمسين، وربما فى الستين، تمسك فى يدها بنفس الفنجان القديم، تتأرجح على كرسى هزاز فى شرفة مظللة، تحيط بها أشجار البنسوانا والكافور العتيق، حتما ستشعر بالوحدة، وسيصاحب وحدتها شعور بالاكتمال.

هى التى تتوق للحرية والاكتمال والانطلاق، تعرف أن كل ماتحلم به مقرون بالوحدة، وتخشى إن حصلت عليهم أن تحرمها الوحدة من ذلك الجمال المنشود. لعلها لاتستحق التضحية... لأجل هذا ستكتفى اليوم فقط بنكهة الصباح وهى ترتشف بهدوء أولى لحظات القهوة المرة.

فبراير ٢٠٠٦م



البيت الذى سأسكنه

بعد أربع سنوات، وربما خمس، سأسكن بيتا مصنوعا من الخشب، هذا البيت سيكون خارج الكتلة السكنية، وسيكون الوحيد الذى يتوسط مساحة واسعة من الحقول، حيث يتسنى لى أن أر حقول الأرز فى الصيف تكسو الأرض بلون أخضر فاتح، وفى الشتاء تكسوها بالأخضر الداكن الذى تعكسه سنابل القمح الصغيرة، وسأتسلى بمتابعة تغير لونها بالتدريج حتى تجف وتصبح صفراء، وربما يذكرنى لونها الأصفر بالذهب اللامع، وقد يأخذنى هذا إلى أغنية قديمة كنت أغنيها وأنا فى طور المراهقة، سأتذكر هذا فأنساق إلى ترديدها بنفس الروح المثالية:

يا اللى الذهب شعرك..

مفرود على ظهرك ...

لو أمتلك مهرك ...

يضيئ لى قنديلك ...

وربما أنشغل فى ترديد أغنية أخرى يذكرنى بها الضباب الذى يلف الحقول كل صباح، حتمًا ستتناسب الأغنية التى أختارها مع ما يلقيه الضباب فى نفسى من شعور بغموض العالم ونكهة الحياة. مثل:

"الدنيا ريشة فى هوا

طايرة من غير جناحين

واحنا النهاردة سوا

وبكرة هنكون فين

فى الدنيا فى الدنيا

سأرددها وأنا أنظر إلى قباب المدافن التى تظهر من بعيد، ويغطيها الضباب فتكون باهتة الألوان، وسأستبعد قرب الموت منى وأنا أسكن بيتا خشبيا ليس كباقى البيوت.

سيكون البيت المصنوع من الخشب مثيرا للفرح، وأنا أنظر من نافذته العلوية إلى حدائق البرتقال التى تمتد خلفه من جهة الجنوب. وسأشعر بالبهجة وأنا أرى حبات البرتقال وهى تتلألأ كالمصابيح ليلا بين أوراق الشجر .

البيت الخشبى الذى سأسكنه سيكون مكونا من غرفة واحدة فقط، وسيشبه الكوخ الكبير. سيكون عرضه سبعة أمتار وطوله اثنى عشر مترا، وارتفاعه ستة أمتار، وسيشبه مخازن الغلال التى تبنى فى المزارع الأوروبية، سيوحى للناظرين بأنه مخزن للتبن أو العلف، بسقفه المائل والمرتفع حتى أتمكن من بناء سندرة علوية أصعد إليها بدرج خشبى، وحيث أستطيع أن أرى المنزل بأكمله من فوق السندرة، وأنا أستند على

إطارها المصنوع من الخشب أيضا، ستشبه السندرة الشرفة العالية وهى تطل على المنزل من الداخل، وسأخصصها للنوم بعد أن أزودها بستارة من القماش السميك كى تحجب الضوء فى الوقت الذى أرغب فيه بالنوم، سأفعل ذلك فى وقت القيلولة فقط، أما فى الصباح فسيحلو لى أن أصحو على ضوء الشمس وهو يتسلل من زجاج النافذة الشفاف مصحوبا بزقزقة العصافير. أعرف كيف سأستدرجها إلىّ، سأضع فتات الخبز كل يوم على حافة النافذة، تلك التى سأجلس عليها ليلا لأتأمل النجوم وهى تلمع فى السماء مثل حبات الماس، وسأغنى وقتها الأغنية الانجليزية التى كنت أفضلها وأنا طفلة :

أيتها النجمة الصغيرة اللامعة

كم أتعجب منك..

تطلين على العالم من فوق

وتشبهين الماس وأنت

أعلى السماء

سأتذكر كم كنت أغنيها بشغف وأضحك، وأنا أحرك أصابع يدى فى حركة مرتعشة أقلد لمعان النجوم فى السماء. سأفعل ذلك وأنا جالسة على حافة النافذة أحيانا، وأحيانا أخرى وأنا مستلقية فى الفراش أستعد للنوم تحت السقف المائل الملاصق للنافذة.

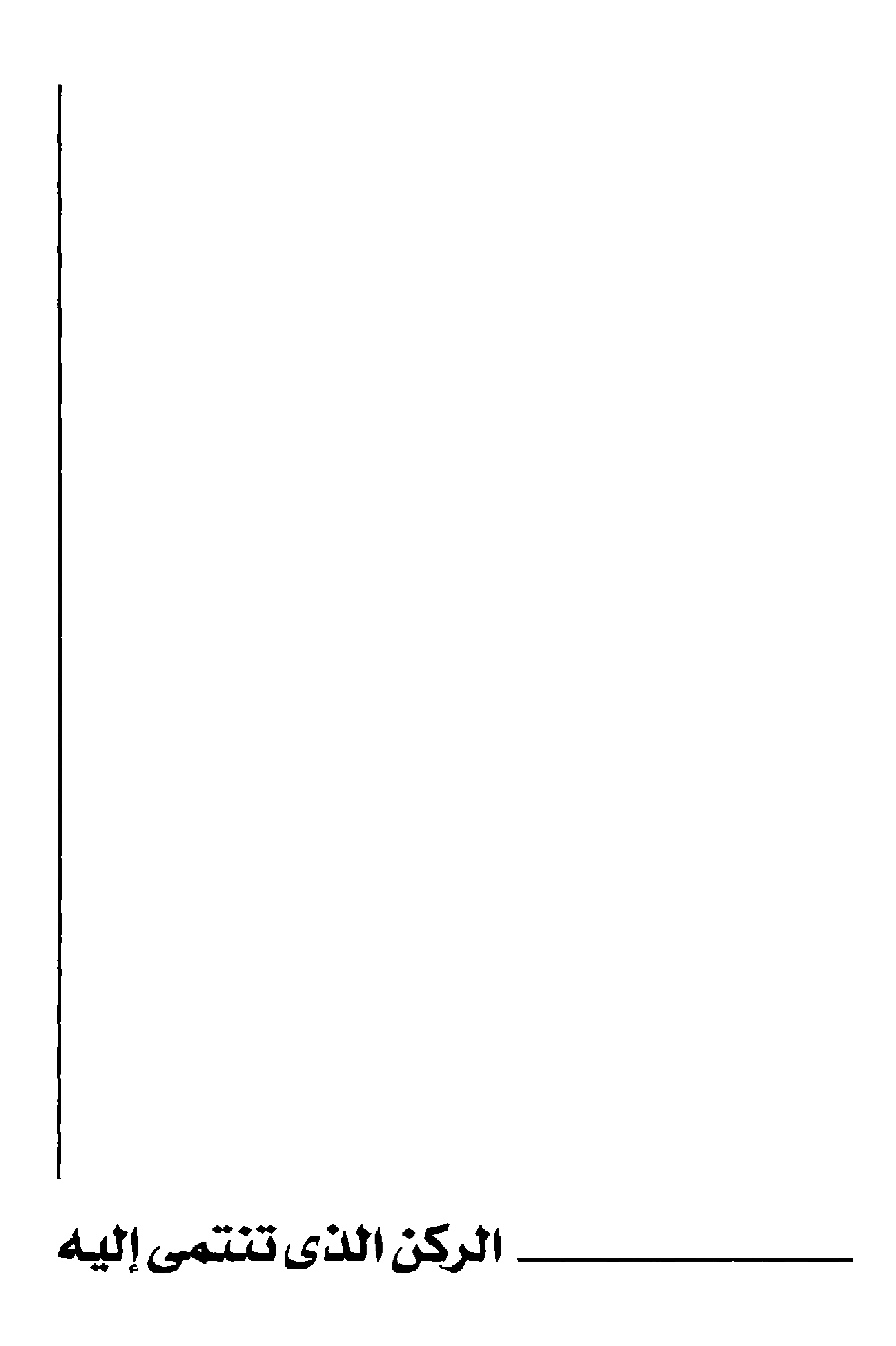
ستكون غرفة النوم العلوية فى الجهة الشرقية للبيت التى تعلو الباب مباشرة وفى الجهة الغربية ستكون السندرة الثانية التى سأصعد إليها هى الأخرى بدرج خشبى، وستكون مخصصة لغرفة المكتب التى سأضع بها دولابا للكتب، وطاولة صغيرة عليها الحاسوب الذى سيأخذنى إلى عالم أكبر اتساعا، وحتما سأجد به سبلا إلى مدن لا أستطيع أن أراها على خارطة الكون.

سأطهو الطعام فى بيتى الخشبى على نار المدفأة التى تجاور أريكة كبيرة، حيث سيحلو لى أن أجلس أمامها على الأرض، مرتدية البنطال الجينز والسترة السوداء والشراب الوردى القصير. سأجلس على السجادة التى يتداخل فيها اللون الأحمر بالأسود، ألتمس الدفء من النار. أراقبها وهى تلقى بضوئها البرتقالى على ملابسى السوداء وعندما تخبو سأقوم بشى الدجاج، وصنع القهوة، على جمرها فى أمسيات الشتاء. أما فى الصيف فأصنع السلطة المحببة بالنعناع وزيت الزيتون، وسأطهو المعكرونة على الموقد الكهربائى الذى سأضعه فى المطبخ أسفل السندرة الغربية، حيث أصعد إليه درجتين بعرض البيت، وسأضع به طاولة الطعام الدائرية التى سيمكننى دورانها من رؤية وجوه جميع الأصدقاء الذين سأدعوهم للعشاء.

سأعتقد وأنا أعيش فى هذا البيت، بعد أربع أو خمس سنوات أنى سأستمتع بهذا السلام والهدوء حتى أموت، وأنى سأنعم بالخلود الأبدى لو قدر لى فقط أن أدفن فيه.

بقى أن أبحث عمن يساعدنى فى بناء حلمى الخشبى، مكان معلف الأبقار الذى يتوسط الحقول، والذى سأرثه - ربما - بعد أربع أو خمس سنوات.

يناير ٢٠٠٦



الركن الذى تنتمى إليه

الركن الذى تنتمى إليه لايزيد عن مترين فقط. تذكر الآن وهى تقبع فيه الأركان المماثلة التى مرت عليها فى مراحل عمرها. ولهها بالأركان منذ الصغر جعل لها ذكريات لايشاركها بها أحد. أولها ذلك الذى كان أسفل الدرج فى منزلها الصحراوى الكبير. كانت تفوح منه رائحة الطلاء الجيرى ممزوجة بالرطوبة. تلك الرائحة التى كلما صودف وأن صادفتها فى مكان ما، تعود إليها ذكرى ذلك الركن، وتشعر بالحنين إليه وإلى السنين المتتالية التى عاشتها فيه.

الركن السفلى هو الاسم الذى أطلقته على ركنها الأول فى منزلها الصحراوى. كانت فى السادسة وهى تلعب فيه بفستانها القصير، تشعر ببرودة أرضيته الأسمنتية تتسلل إلى ساقيها وهى تقبع فيه مثل قطة صغيرة. تعودت أن تستمتع فيه بكونه لها وحدها، الشئ الوحيد الذى تمتلكه ويحوى أشيائها التى لا يشاركها فيها أحد. الدمية البلاستيكية التى بلا رأس، علبة مناديل الورق الفارغة التى جعلتها سريرا للدمية، غطاء قارورة الكلور الأزرق الذى جعلت منه الطاولة فى غرفة النوم.. كرة البينج بونج البيضاء.. والحصان البلاستيكى الصغير الذى أنشق إلى نصفين بمرور الزمن. الآن تعرف كيف كانت محتويات

هذا الركن تمدها بالخيالات، وكيف كانت تأتيها بالأحلام المتجددة كل يوم، هذا هو الركن الأول الذى حفر فى ذاكرتها خلايا الفرح.

ركنها الثانى انتقلت إليه بانتقالها إلى العاصمة، مقعد كبير يقع خلف الباب مباشرة بجوار المكتب الذى تقتسم أدراجه مع أختها الكبرى، درجين فقط اعتادت أمها أن تعبث فى محتوياتهما. كانت تغوص فى المقعد وهى تمسك فى يدها بكتاب مدرسى وبداخله كتاب آخر، تخفيه عن عينى والدتها. هى لاتنسى ما اكتشفته وهى تقبع فى ذلك الركن، روايات الجيب، أغانى عبد الحليم، ومساحيق الزينة. تذكر كيف أغرمت بطلاء الأظافر على وجه الخصوص، وتذكر كيف اكتشفت عشقها للرسم بسبب فرشاته التى ألقت عليها بسحرها الأبدى، تلك الفرشاة التى تموج لها أحاسيسها وهى تسحبها على أظافرها، كم من متعة عاشتها فى كل مرة كانت تضع فيها الطلاء ثم تزيله لتعود وتضعه من جديد. لم تقلع عن هذه اللعبة حتى انتقلت للصف التالى فى المدرسة، وبدأت تتلقى د روس الرسم بالفرشاة بدلا من أقلام الخشب.

ركنها ماقبل الأخير لجأت إليه وهى فى العشرين من عمرها، كان فراشها الذى ضم أحاسيس الثورة والقلق فى نفسها. سريرها الذى اختارت مكانه بجوار باب الغرفة. تذكر كيف أصرت على أن يكون ملاصقا للحائط كى تتمكن من وضع المذياع الصغير بجوار وسادتها دون أن يسقط على الأرض. فى ذلك الركن قرأت رسائل الحب، وكتب السياسة والأدب. يختلف هذا الركن عن بقية أركانها،

فهو الوحيد الذى لاينتابها الحنين إليه، هى لاتعرف إن كان هذا بسبب كونه قد شاركها فى اكتشاف الحقائق الممزوجة بالقهر عندما قرأت عن المعتقلات والسراديب الخفية؟ أم بسبب كونها قد تعرضت فيه لأول تجربة لها مع الخيانة؟ عرفت وهى تقبع بداخله أن الحياة ليست بلون الورد، وأن الذئاب تتخفى أحيانا وراء وجوه البشر. هذا الركن الذى شهد على قرارها الأول بالانتحار، كلما تذكرته شعرت بالضيق والرغبة فى تجاوزه، تكره الشعور بمسئوليتها تجاه ما عاشت به من أحداث، بالرغم من سلبيتها المعروفة، ومن وقوفها دوما مكتوفة الأيدى، إلا أنها تشعر بمسئوليتها فى كل حدث.

القاسم المشترك بين هذه الأركان أنها كانت جميعها ملكا لها وحدها، وأنها كانت تشعر بالقلق كلما غادرتها حتى تعود إليها من جديد. لذا صممت ركنها الأخير بحيث لاتضطر لمغادرته كثيرا، هكذا جعلته متكاملا بقدر الإمكان، ساعد على ذلك أن جعلته مقر عملها أيضا، هكذا اختارت أن تنجز عملها على الحاسوب وترسل به عبر الإنترنت وفى آخر الشهر تتسلم العائد منه عن طريق البريد، يريحها هذا ويساعدها على البقاء فى ركنها الذى جعلت منه بيتا متكاملا.

الركن الأخير الذى تنتمى إليه هو ركنها الحالى، هذا الذى لايزيد عن مترين ويحوى منزلا بأكمله. غرفة المطبخ التى تتمثل فى سخان المياه الكهربائى على أحد رفوف المكتبة، وفناجين القهوة، والشورية سريعة

التحضير التى لاتحتاج إلا لماء مغلى كى تكون جاهزة، وبعض المعلبات، ومغلفات البسكويت، والكعك، وكوب فخارى كبير تضع به ملاعق وسكاكين وفتاحة علب.

بالإضافة إلى غرفة المطبخ كانت لديها فى نفس الركن غرفة المكتب التى تتمثل فى المكتبة، والكرسى المريح الدوار، والطاولة التى تحمل جهاز الكمبيوتر، والمقالم التى تحوى مايمكن أن تحتاج إليه، مقص، أقلام، ألوان، غراء... تضعها بجوار علبة حلوى دائرية تحوى مالايمكن أن تضعه فى المقالم مثل شريط لاصق، وعلبة كبريت، ساعة يد، أقراص منومة، وعلبة علك نعناع، خيوط ملونة، ملمع للأحذية، وسماعة الهاتف النقال، وأشياء أخرى صغيرة.

بجوار العلبة الدائرية، وعلى الطاولة الصغيرة المنخفضة التى وضعتها فى الزاوية، وضعت مرآة وبجوارها ثلاث علب شفافة مستطيلة ومتشابهة، متراصة فوق بعضها البعض، وضعت فى إحداهن الاكسسوارات والحلى، وفى الثانية مستحضرات التجميل، وفى الثالثة مقابض الشعر والأمشاط الخاصة بها. أما الأشياء الصغيرة فقد خصصت لها علبة صغيرة فى حجم قبضة اليد، ثبتتها على جهاز الحاسوب لتضع بها مشابك الشعر، ودبابيس المكتب، ومشابك الأوراق والإبر، وأشياء أخرى متناهية فى الصغر.

حرصت على وضع الأريكة الصغيرة فى ركنها الأخير بحيث تستقبل صديقاتها عليها، هذه الأريكة هى نفسها غرفة النوم التى تلجأ

إليها بعد تعب يوم طويل، فتتكور على نفسها فوقها وتشد عليها شالها الصوف ثم تستغرق فى النوم، أو تستلقى عليها فاردة قدميها خارجها كى تتعرض لحرارة المدفأة، وتبدأ فى قراءة رواية ساحرة.

تقبع الآن فى ركنها الذى تنتمى إليه والذى لايزيد عن مترين فقط والذى جعلته متكاملا بقدر الإمكان، تتذكر وهى مستلقية على الأريكة الأركان المماثلة التى مرت عليها، تستمتع بوحدتها وهى تخشى اللحظات التى تضطر فيها لمغادرته، مثل ذهابها للحمام، أو لفتح الباب لضيف مفاجئ. تعلم أنها سوف تشعر بالضيق وأن الإحساس بالغربة سوف يسيطر عليها، ولن يعود إليها الشعور بالأمان حتى تعود لركنها فتشعر وكأنها قد عادت للوطن من جديد.

مارس ٢٠٠٦

قراءة في الكتاب

يتألف الكتاب من إحدى عشرة قصة قصيرة موزعة على أربعة أقسام أو أربع "محطات" كما تسميها المؤلفة. والقصص في غالبها ترويها امرأة متوحدة مغتربة، سواء جاء السرد بضمير المتكلم وهو الغالب، أو بضمير الغائب وهو النادر. وتعكس القصص في مجموعها - وبغض النظر عن بعض الهنات اللغوية والبنائية هنا وهناك - إمكانات كاتبة قصة قصيرة من طراز رفيع.

وأولى السمات التي تدفع إلى هذا الحكم المبدئي، ذلك التقشف في استخدام اللغة بحيث لا تزيد عن المراد قوله، وبحيث لا تتجاوز حد القصد البسيط إلى التراكيب والمفردات الدقيقة المناسبة لالتقاط المعنى والشعور مهما غمض واتسع. لا تزيد ولا زينة ولا إغراء الكلمات والتراكيب الجاهزة الذي يعاني منه الكتاب المبتدئون عادة، وإنما قدرة على الوصف والتحليل للوصول إلى العمق. ويمكن هنا الوقوف أمام مشهد واحد من إحدى القصص، لنلاحظ بالإضافة إلى تلك اللغة المقتصدة، قدرة أخرى تتيح للكاتبة مزيداً من القصد، حين تمزج السرد بالوصف في وحدة درامية موجزة وناطقة:

".. تبعته عن بعد. كان الطريق الذى يسير فيه متربًا، يرتفع بعض الشىء عن الأراضى الملاصقة، وعشش من الصفيح تتناثر عن يمينه ويساره، قليل من البشر، وكثير من الماعز والخراف، هو الذي هاجر من قريته حبًا فى العاصمة كيف قبل بالحياة فى مثل هذا المكان؟ ولماذا عندما تركها لم يعد لقريته؟ لا تتذكر من حديثه الأخير سوى عبارته الغامضة، كررها مرارًا ولم تفهم معنى لها:

- سارحل كى أنجو"

فى مشهد كهذا تتجلى إمكانات كاتب القصة القصيرة الذى يوقف الزمن ويغوص فى تفاصيل اللحظة الثابتة، لكى يجعلها - مع ذلك - تنطق بالحركة فى الزمن إلى الوراء وإلى الأمام.

يتوفر للكاتبة تراث حكاءة حقيقية، وقدرتها على استدعاء حكاية وحكاية من داخل الحكاية الأكبر. هذا ما نراه مثلاً فى قصة "حياة بين القبور" إذ تستدعى الساردة خلال عودتها الليلية بين المقابر ما تناثر من حكايات الموتى الذين دفنوا أحياء وما يحيط بالحكايات من رعب، وهى تفعل ذلك دون أن يتحول الأمر إلى مجرد مراكمة لحكايات بعيدة عن الخيط أو الجو الأساسى للقصة.

د. خيرى دومة

الفهــرس

المحطة الأولى ٥
عطش الصحراء ٨
خلايا من الغربة ١٥
حياة بين القبور ٢٧
المحطة الثانية ٣٥
بعض من الوقت ٣٧
سطح أملس ٤٥
حصان ٥٣
المحطة الثالثة ٦١
إنها فقط عشر سنوات ٦٣
صباح يأتى لك ٧١
المحطة الرابعة ٧٧
قهوة مرة ٧٩
البيت الذى سأسكنه ٨٥
الركن الذى تنتمى إليه ٩٣
قراءة فى الكتاب ١٠١

التعريف بالكاتب

أسماء عواد

- ليسانس آداب.
- ساهمت في تحرير المواد الصحفية والأدبية المقدمة للطفل في مجلات الجيل الجديد - قطر الندى - العربي الصغير. اليمامة.
- عملت صحفية في مجلة الرياض - اليمامة - عكاظ.
- نشرت لها قصص قصيرة في أخبار الأدب - الثقافة الجديدة - نزوى - تايكي - البحرين.
- حصلت على جائزة «كتاب اليوم» في القصة القصيرة ٢٠٠٦م.
- البريد الالكتروني: SOMAYH HERA@HOTMATL.COM.

لجنة الكتاب الأول

خيرى شلبى [مقرراً]
أمينة زيدان
حسنى حسن
خيرى دومة
سعيد المصرى
سلمى مبارك
سيد الوكيل
شيرين أبو النجا
عز الدين نجيب
كمال رمزى
مجدى توفيق
مجدى جرجس
محمد الشحات
محمد كشيك
مسعود شومان
مصطفى الضبع
مصطفى عبد الله
مهدى بندق
يسرى حسان
يوسف أبو رية

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيلة
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر

العنوان	النوع	المؤلف
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بائع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - ملامح وأحوال	نقد	ناصر عراق
٣٧ - كتابة الصورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتاج الخوف	مسرحية	ناصر العزبى
٣٩- عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠- أولى أول	حكايات	محمد ناصر
٤١- وهج الكتابة	نقد	حسان بورقية
٤٢- البنت مصرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣- قبل اكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤- تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تفكيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى السنة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد

٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافى غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى
٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملى
٥٤ - رغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابى
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدى
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحى عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدى عبد الهادى
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلى مهران
٦٠ - السير نحو نقطة مفترضة	نقد	محمد أحمد العشيرى
٦١ - وخز كان	قصص	أحمد كمال زكى
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية فى الملتقى	نقد	فاطمة فوزى
٦٣ - الروائيون المصريون الجدد	نقد	أحمد الشريف
٦٤ - مذكرات دوناكيشوته	قصص	أمنية طلعت
٦٥ - أنساق اللغة المسرحية	نقد	حاتم حافظ
٦٦ - تغيرات فنية	قصص	نائل الطوخى
٦٧ - محاورات الضوء والظل	نقد	عبد الغنى السيد
٦٨ - النقد المعاصر للفكر السياسى	نقد	أشرف منصور
٦٩ - لونه أزرق بطريقة محزنة	قصص	محمد صلاح العزب
٧٠ - أغنية للمساء الحزين	قصص	أيمن الخراط
٧١ - موكب الجنون	قصص	صبرى عبد الحفيظ
٧٢ - حروب وهزائم	شعر	منتصر عبد الموجود
٧٣ - فى انتظار شىء ما	قصص	أسامة قرمان
٧٤ - هيمنة الغائب	نقد	علاء الجابرى
٧٥ - حماقة	شعر	يحيى زكريا
٧٦ - بدايات قلقة	قصص	جمال الجزيرى
٧٧ - غواية النص وقراءة اللعب	نقد	سيد عبد الله

٧٨ - قصايد للبنات	شعر	صابر محمد فرج
٧٩ - مجرد شكل	قصص	مجدى عبد المجيد خاطر
٨٠ - حفرة للعب	شعر	مها شهاب الدين
٨١ - بورتريه لجسد محترق	رواية	أحمد عامر
٨٢ - العشق مصباح الجسد	شعر	مدحت علام
٨٣ - شجرة جافة للصلب	قصص	هانى عبد المريد
٨٤ - أغنية عن بندقية	قصص	صلاح عساف
٨٥ - ولد خيبان	شعر	سالم الشهبانى
٨٦ - العولمة وقضايا الهوية والثقافية	دراسة	ماهر الضبع
٨٧ - تماثيل الملح	رواية	محمد كمال حسن
٨٨ - الخيال	شعر	عبد الرحمن آدم
٨٩ - عذراً .. لن أشارك فى الاحتفال	شعر	كمال عبد الرحيم
٩٠ - يوم تكلم الظل	قصص	منى محيى الدين
٩١ - الخيال المسافر	قصص	منى محيى الدين
٩٢ - نضارة نظر	شعر	محمود رضوان
٩٣ - الطير فى الشعر المصرى المعاصر	دراسة	عماد حسيب محمد
٩٤ - ثم	رواية	حسين منصور
٩٥ - فركة كعب	رواية	دعاء فتوح
٩٦ - العربات المعطلة	شعر	هانى صلاح العكل
٩٧ - يوم يكون الراعى	شعر	كمال على مهدى
٩٨ - نوبة عطش	شعر	عبد اللطيف مبارك
٩٩ - تحت خط الضحك	شعر	مصطفى الحسينى
١٠٠- باينى كبرت	شعر	أحمد عبيد
١٠١- رابعهم كلبهم	قصص	هيثم خيرى
١٠٢- أسرار البسطامى	قصص	عبد العزيز السماحى
١٠٣- للبحر كلام مستأجل	شعر	عبد اللطيف أحمد
١٠٤- تعود أن تموت	شعر	عادل محمد أحمد
١٠٥- لسببٍ ما	قصص	آمال الشاذلى


المجلس
الأعلى
للثقافة